الفصل الثالث

كأن القرآن يتنزل من جديد

آيات وسياقات ملتهبة

obeikandl.com

obeikandl.com

(1)

لقد كان عجيبًا جدًا، ومدهشًا جدًا، ومثيرًا جدًا، أن ينزل تعقيب القرآن الكريم على ما كان أصاب المسلمين في أحد، فيقول ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وهو الأمر الذي يفتح الباب أمام معاودة تحرير مفهوم النصر والعلو في الثقافة المعاصرة على هدي مما يلوح من الآيات الكريمة، التاريخ الواقعي المادي الذي ينتصر للعدة والعدد يقرر لحوق الهزيمة بالمسلمين في أحد، والقرآن يقرر أن الاستمساك بالحق، وعدم التنكر له، ومراجعة الأمة لأخطائها، والتعلم منها، والتعهد بالتكفير عنها، والتآخي الحقيقي، والثقة في المنهج الإلهي،هي معايير النصر الحقيقي، ومن أجل ذلك كان تعبيره عما حدث في "أحد» بالعلو، لا تصدقوا خطاب الخسائر المادية فقط في تعيين المنتصر، واستحضروا التمسك بالحق، وعدم التفريط فيه، والتجديد فيه.

عند تأمل المسألة نجد أن جهاد العدو، والاستمرار فيه، والنيل منه، وإيلامه، ورفع راية الله، هي معايير النصر.

(2)

أقسم غير حانث بربي أن لمراجعة القرآن الكريم وفحصه على هدي الواقع الملتهب، يمنحه التنزّل المتجدد، وأقسم غير حانث بمن نزَّله، وجعله خاتم الكتب أن للآيات التالية طعمًا جديدًا لذيذًا ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ وقوله ﴿وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ۝١٤ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾،إن كثيرًا من وَحَرِ القلوب يختفي الآن مع ما يتنامى إلى أسماعنا من فوز ابن الثانويات الشرعية، الذي تربى وتدرب في حضن الحركة الإسلامية.أعلم أن الفتنة غير مأمونة على الحيّ، لكني أقرأ الكتاب العزيز الآن، فأجده يتنزل من جديد.. تفاءلوا، وافرحوا بنصر الفكرة، وثقوا في الله تعالى، هو مولاكم، واثبتوا على الحق.

(3)

تذكروا قبل أن تستبدلوا! ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ من عجيب ما نبَّه إليه المفسرون بمن فيهم من المتأخرين، كأبي السعود: أن الله تعالى حكم على كل مبغض لمقام النبوة بأنه هو الأبتر، أي مصيره الانقطاع المادي والمعنوي. والمأمول من المعاصرين أن يضموا إلى هذا الحكم الطوائف التالية:

1. من ينكر نبوته.
2. من يتطاول على مقامه، أويسخر منه، أويقلل من شأنه، أو يتهمه بأي نقص من جهة البدن، أو الأخلاق، أو الزوجات.
3. من ينال من سنته الصحيحة.

ومازال الباب مفتوحًا، يضم غير هذه من الطوائف؛ ليتنبه كل أحد إلى موقعه من الآية؛ لأن الطعن في النبي ﷺ، طعن في الله الذي اصطفاه!

(4)

يقول تعالى:

﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ﴾ توقفت أمام هذه الآية الكريمة، فظهر لي ما يلي :

1. تجدد المراد الإلهي المعلن في الآية، واستمراره على الدوام، بدليل مجيء الجملة اسمية، وخبرها مضارع.
2. تعالي الإرادة الإلهية، وتساميها، وقهرها لغيرها من الإرادات، بدليل تقدم الإعلان عنها، وتأخر الإعلان عن غيرها، وبدليل ذم الإرادات الأخرى، ووصمها، وعيبها.
3. توافر إرادات الخصوم الذين يريدون الشر بالمسلمين، وهم جماعات مختلفة، وأصحاب أديان وملل متنوعة، وغير مجدٍ حصرهم، وتركهم على الشيوع أولى في باب تأمل المواجهة.
4. تنوع الطرق المستعملة من قبل الآخرين، بدليل وصف ما يريدون وتأكيده بقوله تعالى ﴿مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ لم يعد من سبيل سوى الركون إلى جناب الله تعالى لتحقيق النجاة!

(5)

يقول تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾

هذه آية عجيبة جدًا في زمان صعب للغاية.

إن الصمت المرعب للجماهير في بر مصر على تردي الخدمات المرير، في كل مجالات الحياة، ولا سيما الضرورية يفرض على عددٍ من علماء عددٍ من العلوم إطالة التأمل في سلوك هذه الجماهير، إن علماء علم الاجتماع، وعلماء علم النفس، وغيرهم مدعوون بإلحاح إلى دراسة الظاهرة، إن رواسب الخوف العميق الذي ارتفعت جدرانه بقوة بعد انقلاب يوليو العسكري، قديمة جدًا، ولعل قارىء الذكر الحكيم يلحظ أن أنبياء بني إسرائيل في مصر هم وحدهم الذين أعلنوا كثيرًا خوفهم من بطش الحكومات الفرعونية في غير آية كريمة، يقول تعالى ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾ إن تاريخ الأفكار مدعوٌ إلى فحص المسألة على هدىً من أصح وثيقة تاريخية عن تاريخ اليهود في مصر، وهي المتمثلة في آيات القرآن الكريم.

(6)

يقول تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ إن تأمل هذه الآية يفتح الباب أمام مقصد لله في تحقيق الإيواء، لقد وفّر رب العزة سبحانه للنبي صلى الله عليه وسلم، المربّي، والمربية، والمرضع، والبيئة النقية الصحية، والبيئة اللغوية المستقيمة الفصيحة، ثم هيأ له عند الكِبَر الزوج الأم الرحيمة، والبيوت، والعمل؛ ليكون الإيواء الممنوح شاملًا، يغطي مساحات الحياة جميعًا، إن برامج رعاية اليتامى في العصر الحديث قاصرة، وبرامج التربية للنابهين وغير النابهين قاصرة، راجعوا الذكر الحكيم من أجل حياة حقيقية.

obeikandl.com

(7)

﴿رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ في الطريق إلى الآخرة من الضروري استصحاب ما به النجاة من سوء الخاتمة، والله تعالى يعلمنا أن نسأله أمرين ظاهرين في الآية الكريمة:

1. أن نسأله استمرار السير في طريق النور، والإيمان به، والدوران حول الحق الذي أنزله، والقيام بالذي أمر به، من طريق تحصيل العلم النافع، الوصل إلى النور.
2. أن نسأله المغفرة، والستر، ومحو الذنوب، وهو ما يعني أن رحلة طالب النور قد يعتريها بعض أخطاء، بسبب من شهوة، أو غفلة، أو ركون إلى جبلة الطين، وهو ما إن كان لزمه طلب المغفرة، تجديدًا للطريق، وحفزا للهمم، وهذان المطلبان يلخصان منتهى الوعي بطبيعة العلاقة التي ينبغي أن تحكم علاقة الإنسان بربه، والتي تتمثل في السعي إليه، والرجاء فيه، والاستشفاع بقدرته. ربنا أتمم لنا نورنا، وأدم سيرنا فيه، ولا تقطعه عنا، ولا تقطعنا عنه، واغفر لنا، وارحمنا، وتجاوز عما صدر منا عن جهالة، وسفاهة، وغفلة، وشهوة، وركون إلى الطين، نستشفع بك إليك، إنك على كل شيء قدير!

(8)

هل استشعر أحد معنى قوله تعالى﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ في أجواء المحنة، وبعد آلام فشت في الناس، تتنزل الرحمة الربانية، فتتهيأ أسباب نصر، لم يكن أي عقل يتصوره؛ لفقدان أسبابه، ولتباعد مقدماته، لكن الله أبى إلا أن يمنحنا صدق قانونه في الأرض: أن ينصر الحق، وينصر المستمسكين مع خذلان الجيران، وقلة في الزاد، وندرة في العتاد، وخوف مقيم، وتنكر قائم من الجميع، انتصرت كلمة الحق، ورضخ الباطل، واستسلم، ونفع الله بصواريخ استهزأ نفر من اللئام منها، ونجحت أياد فارغة إلّا من قوة موصولة بالسماء، وأرعبت أصوات صدحت باسم الله الجبار، فتهاوت قوى، ولم تجد طائرات، وانتكست رايات التفت حول أصنام الخيانة! الحمد لله وحده، نصرجنده، وهزم الأحزاب وحده! يا أهل مصر المستمسكين بالحق، المحتفظين بإنسانيتهم اثبتوا، وتفاءلوا، ولا تيأسوا، وثقوا في الله الذي نصر إخوانكم على ضعفهم وانكسارهم.

(9)

يقول تعالى ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ في تأمل علو الأمة تظهر معايير غير تلك التي يألفها الناس، ويركنون إليها، بسببٍ من سطوة التعلق بالأسباب المادية.

إن الإسلام يقرر من خلال هذه الآية وأخواتها اللائي من جنسها: أن العلو شيء ربما خاصم حيازة أسباب التفوق المادي، وارتبط بتحقيق الإيمان بالله تعالى ابتداءً، بتنزيهه التنزيه العملي، وتوحيده التوحيد العملي المنعكس على الأخلاق والحركة والسلوك، فلا يكون ثمة قوي غيره، يرهب الجانب، وألا يكون ثمة متحكم غيره، لأنه وحده الحاكم، وألا يتطرق للوجدان شك في شريعته، والحق الذي أنزله، ولو اصطف الجميع في غير صفه، هنا يكون العلو، وهنا يكون النصر، ولو واجهنا عدونا بصدور عارية.

(10)

يقول تعالى

﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ في علم اللغة اليوم عناية ظاهرة بتحليل النصوص، وأنها كاشفة عن دوافع أصحابها، ومقاصدهم، حتى روي عن بعض الصحابة: أن أسرار النفوس مكشوفة على ألسنتهم، ولعل تأمل هذه الآية الكريمة تفتح الباب من جديد لفهم النهي النبوي عن سجاعة الكهان، وهو التلهي عن كل كلام من شأنه أن يلبس على الناس الحق، الكهان ما يزالون بيننا، ولكن المدهش وجود كثير من الناس لديهم استعداد للسقوط في شراك الكهان الجدد، وآليات الكهانة الجديدة نوع من السجاعة الجديدة، تتمثل أسلوبيًا، وأدائيًا في ما يلي :

١ – الهدوء في التنغيم الصوتي.

٢ – تكرار عدد من الجمل، بطريقة خاصة.

٣ – اختيار معجم مائع، سائل.

٤ – تصميم الخطاب بطريقة إلقاء المسئولية على كيانات هلامية.

إن الكتاب العزيز يحذر من الاستجابة لسجاعة الكهان، ويفضح أصحاب لحن القول، على امتداد الزمان.

(11)

يقول تعالى :

﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ لقد تكرر هذا التذييل في عدد من مواضع الآي في الذكر الحكيم، وفي سياقات التعقيب الذي يطلقه الأنبياء بعد أوامر إلهية بالامتناع عن مراد لله تعالى، يتجاوزه القوم، ويعصونه.

ومن ثم فإن أي استشهاد معاصر به ينبغي أن يكون مستصحبًا تجاوزًا واضحًا لنهي صريح، وحرمة آكدة. إن قضية استدعاء الكتاب العزيز واجبة في بناء المعرفيات جميعًا، لكنها مع وجوبها يلزمها الاحتياط في تنزيلها المعاصر، ومراعاة سياقات هذا التنزيل. ليس من الحكمة، ولا من العلم، ولا من النبل أن يستدعيها أحد في سياق أدنى درجاته مع التجوز أنه سياق موضوع خلافي، وهو ليس كذلك، فكيف والذي يستدعيه يشغب به على حق ظاهر، يتخذ منه موقفًا انهزاميًا، لم يوجد نبي من أنبياء الله تعالى، يعقب بذلك التعقيب بعد شأن محتمل لرأيين، ولا يوجد نبي من أنبياء الله تعالى يعقب بذلك التعقيب في مواجهة قوم استمسكوا بالحق، واحتموا بإنسانيتهم في مواجهة الباطل!

(12)

يقول تعالى ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾ من قوانين السماء خلق الإنسان قادرًا، ومن ثم فعمله مؤثر، وهو مدعوّ إلى فعل الخير، منهيّ عن عمل السوء والشرور، وقد رتب الداعي سبحانه الثواب على دعوته الأولى ورتب العقاب على دعوته الآخرة. ومن عجيب الآية أن استعملت ﴿مَن﴾ وهو من الأسماء العامة الصالحة للتنزل على الأفراد والجماعات والكيانات والدول. إن أول شروط التعلم من المحنة أن نبحث في السوء الذي تورطنا فيه، فعوقبنا، وجوزينا، بسبب من ارتكابه. ومن الخطأ المروع الظاهر أن نحصر السوء في المعصية الفردية، ومن ثم ندعو الناس إلى الاستغفار منها، وهذا الأمر على جلاله وخطره، ليس معقد النظر. ينبغي أن نتجاوز هذا النظر إلى تأمل المعصية الجماعية، والمعصية الجمعية، وأن نفحص المعاصي السياسية التي تورط فيها نفر كانوا محل ثقة خادعة، وكانوا معقد آمال كالسراب، خدعوا من ائتمنوهم، ساعة لم يتنحوا عن أمر لا يفهمون فيه! ولا علاج لهذا السوء إلا بالعمل الإيجابي القادر على تصحيحه، إن الاستغفار من هذا السوء الجماعي لايكون بالتوجه الفردي إلى الله تعالى طلبًا للغفران، مع جلال هذا وأهميته، لكنه يكون باعتزال من تسببوا فيه بجهلهم، ورعونتهم، وادعاءاتهم المعرفة وهم لا يعرفون!

(13)

يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا﴾ إن أول ما يصل إلى النفس والعقل معًا من هذه الآية الكريمة هو أن الله تعالى صاحب الأمر كله، يملك مواقيت الأمور، وهو وحده، سعى الخلق أو لم يسعوا، محقق مراداته. وبلوغ الأمر الذي يعلن عنه مؤكد، لا مجال لأن يشك فيه أحد بدليل التصميم اللغوي للآية، وهو مستغرق للزمان، في الحال والاستقبال بتحكيم القراءات في هذا الموضع، وهو قائم في النفوس بدليل ما مر من حادثات التاريخ المذهلة. والله يريد من خلقه أن يتوكلوا عليه، ويركنوا إلى جانبه، ويديموا الاتصال به، والإقبال عليه، والسؤال منه، والإلحاح عليه، والانكسار بين يديه، ونفض اليد إلا من فضله، وساعتها يكون سبحانه كافي الناس جميعًا، ومانعهم من غيرهم، ومنتصر لهم، إنه من يتوكل على الله سبحانه يكفيه ويغنيه. لقد رد النبي الكريم، ﷺ، جوار نفر من المشركين دخل في جوارهم مدة من الزمان، ولم يتحقق له النصر، والمنعة إلا بعد أن مات مناصروه، وكافلوه، وخرج من جوار من كان سبق ودخل في جوارهم، انتصر في اللحظة التي تخلت عنه فيها كل أسباب البشر، وانتصر في اللحظة التي طلب منه مجيره شيئًا لأنه يستشعر الحرج من النظام القائم قديمًا، انتصر عندما ركن إلى جوار الله وحده، فكان النصر، وكانت المنعة، وكان انتصار الزمان!

(14)

يقول تعالى ﴿رَبِّ ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ هذه آية جليلة القدر، ربما تحتاج إلى فضل تأمل جديد، ذلك أنها جاءت في سياق مضرب المثل، بعد قوله تعالى﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، وهو مثل لامرأة مؤمنة، والمرأة في الثقافة العربية، كائن لطيف، ضعيف، متأخر الرتبة، قياسًا بالرجل، وهو ما يجعل الاقتداء بفعلها الإيجابي هنا غير مقاوَم، لقد تبرأت المرأة من فعل طاغية الزمان، وقالت بملء الفم ﴿وَنَجِّنِي مِن فِرۡعَوۡنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ وتبرأت ممن أيده، وشايعه، وفوضه، وفرح بمسلكه في قتل المؤمنين، واستباحة حرمة النساء، والتنكيل بالجميع، فقالت ﴿وَنَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وهو درس بالغ في البراءة لا يملك المعاصرون ترف التنكر له، وعدم الالتزام به. كانت المرأة واعية بإنسانيتها، لم تُطِق أن ترى مجرمًا عاتيًا، يلغ في الدماء، ولا تنطق بالتبرؤ منه، ولم تطق أن ترى همجًا خانوا قدر الله في إنسانيتهم، فصرخت بالحق، وأعلنت عدم رضاها، ورفضها لهذا الانهيار الإنساني. هذا درس ممتد على الزمان، امرأة نطقت بالحق، واحترمت شرف البراءة لنفسها، ثم طلبت أكرم جوار، وارتاحت إلى أعظم حامٍ سبحانه! رضي الله عن امرأة فرعون، وردّ من فيهم بقية خير إلى مقام الإنسانية!

(15)

يقول تعالى ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ في تاريخ الإقبال على الله تعالى تبدو المعادلة الصحيحة قائمة في الاطمئنان البالغ إلى قوته، وحياطته للمقبلين عليه، كرمًا منه، سبحانه، وتحقيقًا لتجليات أسمائه وأوصافه، التي أعلنها على خلقه، ساعة دعاهم للإيمان به، والإقبال عليه. وباسم هذا الذي كان منه أمرهم بعدم اليأس من رَوحه، ولا من قدرته على أن يُفرج عن المكروبين كُرَبَهم، ولا من فضله على أن يُروّح عن المحزونين بذهاب حزنهم، وأن يغسل عن المكدودين ما أرهق كواهلهم، ولا عن الخائفين ما ألجأهم واضطرهم إلى الشتات في الأرض، تحملهم تارة، وتتقلب بهم أخرى، وتوعد الذين يخالفون عن أمره، ويقتربون من حدود أرض اليأس بالعذاب ساعة وصمهم بالكفر! وهذا محتاج إلى فضل تأمل؛ لأنه أراد منهم أن يملأوا عقولهم وقلوبهم وضمائرهم بتصديق ما أخبرهم به من أمر قدرته، وقيوميته، وحفظه، وهو الصادق سبحانه الذي لا تتخلف عنه قدرته، ولا تتعطل قيوميته، ولا يعجز عن حفظ، ومن أجل ذلك كان اليأس إعلانًا صامتًا وصريحًا بعدم تصديق ما قام الدليل على ثبوته في حق ربنا، لقد جاء هذا القول الكريم، بعد ضياع يوسف، وبعد إلقائه في الجب، وبعد ما يشبه الضياع لأخيه بعد أن أُخذ في دين الملك، ولكن يعقوب النبي

الموصول بالله، المصدِّق بما أخبر به سبحانه عن نفسه، أسقط ما كان من علم الدنيا انتصارًا لما كان واستقر في نفسه من علمه بالله تعالى، وهو في هذا محق سابق لكل نظريات العلم المعاصرة، أَلَم يعلمونا أنها نظريات احتمالية؟! فلماذا نركن إلى بطش الجبارين، وإلى ظلم الظالمين، وإلى فُجر الفاجرين مع أن الدليل الذي لا يُنازع قد قام على أنهم منقطعون، وزائلون! لقد ملك يوسف، بما يعني أنه وُجِد بعد مظنة الهلاك، ضم إليه أخاه بعد مظنة أخذه في دين الملك، ورفع أبويه على العرش بسببٍ من إيمانهما برفعة الله تعالى. اطمئنوا، وثقوا في الله تعالى، وكونوا على طريقه، ولا تيأسوا، لأنه باقٍ أبدًا، قيوم أبدًا، حافظ أبدًا!

obeikandl.com

(16)

يقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ هذه آية جليلة القدر، تفتح الباب أمام المعاصرين الذين ترهقهم اللحظة الراهنة، وتقترب بهم من حدود الموت المعنوي البطيء القاسي لمعاودة تأمل مواقفهم. أي شيء ينال من عزائمهم؟ وأي شيء - يلفتهم عن الحقيقة الباقية الساطعة التي تعلن أن الله هو الحق؟! والحق هو الثابت على حين يرحل كل مافي الوجود سواه، والحق هو الدائم المتعالي الكبير الذي لا يطاوله أحد، ولا يدنو من ثباته ولا من علوه ولا من كبره أحد. الله هو الحق، وما في الكون على امتداد الزمان جميعًا هو الباطل، لأنه يزول، ولا يثبت، ولا يبقى. وهو الباطل الذي ينكسر دومًا، وينهزم دومًا، ويغيب دومًا، وينقطع دومًا، ويذل دومًا، ويزل دومًا.وفي سياقات أخرى يبدو الباطل زهوقًا، يقول تعالى﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ والباطل هنا صفة مشبهة باسم الفاعل لا صيغة مبالغة، كما جاء عند جمهور المفسرين؛ لأن الباطل زهوق دومًا، وهو زهوق باستمرار وثبوت! الله هو الحق فدوروا معه، وهو الحق فانتصروا لمراده، وأقبلوا عليه ليرعاكم، ويبدل الأمر لكم، وانتصروا لإنسانيتكم، وتبرءوا من الباطل لأنه معاند لله، ومعاند للحق! الله هو الحق فمن ذا يريد البقاء الأبدي السعيد!

(17)

يقول تعالى ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمًا﴾ من بديع أمر الإسلام ما جاء به من رحمة، وضع بها الأغلال التي كانت على من قبلنا من الأمم، ورفع بها الإصر الذي كان. ومن ذلك كفالة التوبة في أي وقت، قبل خروج الروح، ومن كل ذنب، وكفل سبحانه الغفران من الذنوب جميعًا، أليس هو القائل سبحانه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ وهذا أوان الناس أحوج ما تكون إلى التراحم، وأحوج ما تكون إلى الفرح ببعض الخير يبدو من آحاد الخلق، كان أمر العقلاء من السلف الفرح بعودة الذين أسرفوا على أنفسهم، وكان النبي ﷺ يرجو الإيمان للخلق، ويدعو به لأعيان بعينهم، ويسمى خلقًا يرجو نصرة الدين بهم، ويزجي مِدَحًا لأعيان، أملًا في هدايتهم، إنني أدعو للفرح ببوادر التوبة التي يمكن أن تلوح ممن نعرف له سوابق من الفضل والخير. إننا ساعة نفعل نترفق بأنفسنا، ونرحم أنفسنا، وندخر لها بعضًا من الخير يعود إلينا عند الحاجة. إن الله تواب رحيم، ويحب من خلقه أن يكونوا رحماء، يفسحون الطريق لعودة من يريد العودة. لا تكونوا عونًا للشيطان على من يريد الله!

(18)

يقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾، نزلت هذه الآية تعليقًا على قوم كانوا يسمعون من النبي ﷺ، فلا يتحرزون من نقله وإفشائه إلى المشركين، والمتأمل للآية يلمح تكرارًا عجيبًا للنهي عن الخيانة، مرة بالنهي في صورة قاعدة عامة شاملة تقرر حرمة خيانة الله تعالى وخيانة نبيه المصطفى، ومرة أخرى بالنهي عن خيانة الأمانات التي تقع في قلب مسئوليات كل امرئٍ. وهو التكرار المفضي إلى توكيد حرمة الخيانة، وتغليظ أمر الاقتراب منها. وقراءة الآية في سياق ما رُوِي من أسباب نزولها يحملنا على أن نقرر أن ثمة أنواعًا من الخيانات أهمل الناس تقدير خطرها، ففي الحياة خيانات اجتماعية نزلت الآية فحرمتها، وفي الحياة خيانات سياسية هي آكد حرمة، وأشد وقعًا؛ لأنها تضر بالأمة جميعًا. الآية تفتح الباب أمام تحريم كل خيانة، وتؤكد أن التقصير في ما رضي الإنسان وتحمله من الأعمال والواجبات خيانة لله ورسوله، ولمقدرات الناس والأمة. ولن يفلح خائن لله ولرسوله ولأمانات الخلق، وأنه ما من خائن إلا سيرتد غدره عليه، وسيأتي بعد ذلك يحمل لواء غدرته يوم القيامة. لقد تسببت الخيانات، ولم تزل، في هزائم منكرة للأمة، والله سبحانه سيلقي على الخائنين ممن خانوا الله في وظائفهم ومسئولياتهم، خزيه وعذابه، به في الدنيا والآخرة، ذلك أن الله تعالى لا يهدي كيد الخائنين، فهو القيوم سبحانه!

(19)

يقول تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّىَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ هذه آية جليلة كأنما تتنزل اليوم! إن تهامسًا يدور في بعض النفوس، ويريد أن يجد له آذانًا تسمح لما يغلي في الصدور أن يتنفس، وودّت لو تلقى من يرده بالحق والإقناع المدعوم بالدليل، وفي هذه الآية تجاوب مع هذه الحالة. استيئاس الرسل هو بلوغهم اليأس من استجابة من يدعونهم، ويحترقون شوقًا إلى هدايتهم، وظنهم هو يقينهم من تكذيبهم، والتنكر لدعوتهم، والشغب على الهدي الذي يبشرون به، والنور الذي يحملونه للناس، والإيمان الذي يرجون عمارة النفوس به. في هذه اللحظات المقبضة، والأجواء الخانقة، والمحيط الأسود الذي لا يبشر بنصر، يلوح في الأفق نوع نصر لم يرد على الأذهان، ونوع نصر لم تُر مقدماته بين الناس الذين انفضوا عن الانتصار للحق، والإنسانية، والإيمان، والطريق القويم. في هذه اللحظات التي يُطارد فيها الرسل، ومن يستمسكون بمواريث النور، والحق تتجلى - قدرة الله تعالى في تنزيل النصر، وفي تخليق النجاة من دون سابق تمهيد بشري، ومن دون قدرات أرضية، ومن تمام النجاة الموعود بها بعد تحقق اليأس التام من الانتصار بمحدداته الأرضية، أن يقع الانتقام من - المجرمين، وأن يتحقق تساقط البأس، والشدة، والعنف

بالمجرمين، أفرادًا وجماعات! عجيب أن تتكلم الآية عن القوم المجرمين بما هم كثير لا يعجزون الله، وبما هم جموع متآزرة، وبما هم حشود متساندة، وعجيب أن يكون وصفهم الملازم بالمجرمين من دون الكافرين ليقطع الحجة على الذين يشغبون بأنهم لا يجري عليهم وصف الكافرين، وليصح الحكم بالآية في كل زمان! بشّروا الذين بلغ اليأس منهم مبلغه، وضاقت صدورهم، وأُوحي إليهم أن القضية أُبرم الحكم فيها، وأن المسألة أُغلقت، وأنه لم يعد ثمة أمل في انتصار الحق أن هذا أوان تنزل النصر، ووقت ولادة - النجاة، وزمان الانتقام الإلهي من المجرمين! يا أهل الحق تمايزوا، وفروا من مقامات المجرمين، فإن النصر والنجاة لأهل الحق توشك أن تخرج من رحم الغيب الذي تلوح أمارات تنزله!

(20)

يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ هذه آية جليلة القدر، وهي صالحة لأن تكون دستور نجاة لأفراد الأمة، ومجموعها، لقد دأب الناس على تذكرها، إن تذكروها، في مقام المعاصي الفردية، وربما سجنوها، في التخلف عن العبادة، تركًا، أو تقصيرًا، والحق أن هذه الآية بتعريف الشيطان فيها، وإطلاقها الزمني، الذي لم يقطعه قاطع من قرينة، تقصره على وقت بعينه، وبإقامة الدليل العملي على ناتج عداواته في آخرها تريد أن تعلن التحذير الجامع للأمة لكي يتنبهوا إلى الأعداء، الذين شملهم التعبير بالشيطان! إن الأمة التي لا تحسن صناعة الكراهية، كما تحسن صناعة الحب أمة لم تفهم عن الله تعالى مراده في قيادة الخلق، وإن الأمة التي لاتجيد صناعة العداوة كما تجيد صناعة الإحسان والتراحم أمة خاسرة، تركت للأمراض فرصة لانتهاب جسمها، ووسعت الطريق، لافتراس هويتها، وقوتها. الله يأمر الأمة أن تتخذ من الشيطان عدوًا، وأن تديم تذكر ذلك، وأن تستمر في مراجعة خطط هذه الصناعة الاستراتيجية في أجيالها المتعاقبة، وأن تكون على حذرٍ وذكرٍ دائمين لثأرها ممن أخرج أبويها من الجنة، إن معركة الصراع بين الحق والباطل، وبين التوحيد والشرك مرهونة بدوام ترقية صناعة الكراهية،

وصناعة العداوة للشيطان في الأمة، والشيطان، وإن كان لفظًا لغويًا دالًا على ما جاء من نسل إبليس، لعنه الله، فهو كل شر في الحياة، وكل بلاء، وكل معاندة، ومعاداة لله، وشريعته، وما أراده من خير وأخلاق بين الناس، إن الشغب على صناعة الكراهية وصناعة العداوة للشيطان، وأوليائه، ومن يحمل لواءه، من الأفراد، والجماعات، والكيانات، والدول، والأنظمة بقية - من بقايا استلاب الأمة، من جهة الهوية وبقية من غزو للفكرة الغربية التي نبتت في أحضان عقائد أخرى، تروج للصفح التام، والخذلان المستتم، وترفع الصوت بالضعف القاتل المهين للأمة، الفكرة الإسلامية فكرة إيجابية تقتحم العالم، والحياة، وتفرق بين الصلاح، والشيطان، وهي غير الفكرة المسيحية، تعلموا صناعة الكراهية والعداوة للشيطان من أجل النجاة والبقاء!

obeikandl.com

(21)

يقول تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذه آيات جليلة نزلت في أعقاب محنة قاسية، وظرف تاريخي عصيب، بعد غزوة أحد، في مفتتح تأسيس الدولة الإسلامية في التاريخ كله. وهي تريد أن تقر أسس البناء، وتعلي من ركائزه النفسية في الأمة، بتقدير ما يميزها عن غيرها في طريق الحياة، وتعلم أبناءها أن يخاصموا الهوان، والانكسار المعنوي، لأنه عاصف بالأحلام، مغتال للطموح، مدمر للمسيرة، وهي في سبيل ذلك ترفع من قيمة الأمة، وتقرر معيارًا وحيدًا بالغ القيمة والجودة في تقدير موازين الأمم، وهو الإيمان النقي بالله، والإقبال عليه، والتصديق بموعوده بعد الاطمئنان إلى حمايته، والاطمئنان إلى شريعته، لا هوان، ولا ذلة، ولا انكسار لمن حصّل الإيمان، في القلب، وصبغ الجوارح بما يقوم برهانًا عمليًا على هذا الإيمان. أما آلام الواقع، وأحزانه، وشدائده، وخسائره المادية فكل فريق حاصل على قدره منها، من دون أن تكون حاسمة في تقدير نصر المنتصر، أو هزيمة المهزوم، ذلك أن توزيع القرح إنما هو بالتساوي في هذه الحياة، من أهل الحق أولوا تضحية، وإنفاق،

ومنهم من تشخب الدماء من جروحه في منازلة أهل الحق، ومنهم من يهلك في المعركة، وهم في كل هذه الوجوه يستصحبون الآلام، والخزي، والعار، وربما الكراهية، لأنهم يفعلون وهم كارهون مقهورون، أما أهل الحق فيبذلون ساعة يبذلون، ويضحون ساعة يضحون، ويجرحون ساعة يجرحون، ويستشهدون ساعة يستشهدون وهم يطربون، ويملؤهم الفرح الغامر بالاصطفاء، ويتيهون فخرًا بما يقدمون، القرح واحد ولكن النتائج متخالفة! إن الله يريد منا أن نكون على الطريق الذي اختاره، مؤمنين به، راضين، مبتهجين،غير ظالمين، وهذه هي معايير النصر لا غيرها، صحيح أن العلو المادي، وكسر الباطل مراد لله تعالى، ولكنه وجه من وجوه النصر! يأيها المستمسكون بالحق، المدافعون عنه، اقبلوا من الله، وأقبلوا على الله، وراجعوا المسألة، واستهينوا بقروح الزمان، وتيهوا بها واجعلوها مادة للبهجة والفخار؛ لأنكم بالله أعلى، ولأنكم بمخاصمة الظالمين أرقى.

(22)

يقول تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ هذه آية جليلة كأنما تتنزل اليوم، إنها تعلن أن الأرض، وهي الأرض عند الإطلاق، وأن الحكم مآل أمره لمن سماهم بعباده الصالحين، وهم من يؤمنون بمرجعية السماء الخاتمة بدليل التعقيب على الآية بقوله موجها الخطاب للنبي الكريم صلى الله عليه وسلم، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾، بالإقبال على الله سبحانه، والعمل بمقتضى آخر شرائعه، والاتباع لخاتم رسله، وراثة الأرض، والحكم، وبها يكون العلو، والارتقاء، والسيادة، والآية تبلغ وتعلن القانون الموصّل للوراثة، والسيادة فتقول ﴿إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي أن الرسالة المتقدمة مقصود بها هؤلاء العابدين، المتبتلين، المخبتين لله تعالى. إن الكتاب العزيز في حاجة ملحة لإعادة قراءته في ظل المحنة؛ لأنه كتاب ينفتح عطاؤه في المحنة، لقد تنزل في أجواء ملتهبة ليحقق انتعاشة الحياة، وهو كتاب الزمان الذي لا تتغير قوانينه، ولا تتبدل معاييره، القرآن يعلن أن النصر قادم، وأن جيل تحقيقه هم المستمسكون بروحه، وقوانينه، ومبادئه، وشرائعه، وما افترضه على المؤمنين من عبادات، وما جاء به من سامي الأخلاق! الله قال وحكم، والزمان مصدّق حكمه وما قاله لا محالة!

(23)

يقول تعالى: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ هذه آية جليلة القدر تربط على القلوب التي تجاهد بالكلمة، فيُضيق عليها، وتمنع، وتحارب، في كل عصر، ثمة نوع معاصر من المكاء يكمن في الشغب على الأقلام الحرة النزيهة، بالاتهام، والإقصاء، والقصف، حتى لتجد صاحب المنصب الكبير يأمر مدير تحرير الصحف التي تصدرها المؤسسة التي يترأسها بمنع من يخالفونه من أهل الحق، والعلم، ولو كانوا أكبر منه، وأعلم منه، وثمة تصدية معاصرة أيضًا تتمثل في مطاردة أصحاب المبادئ، والتضييق على أقلامهم، ومحاصرة مدادهم.

وهؤلاء الذين يمارسون المكاء والتصدية من الشيوخ والوزراء ورؤساء مجالس الإدارات المعاصرين واهمون؛ لأن الكلمة لا تحاصر، ولا تمنع، إن سُدّ أمامها باب فُتحت أبواب، وإن حُرقت الأوراق، تلقفتها الأذواق، ثم هم واهمون لأن الحق لا يقف في وجهه انغلاق مجلة، أو صدود دورية، الحق مقتحِمٌ!ثم يكون العذاب لأولئك الذين يمنعون كلمة الحق، ويصدون عن السبيل، بمناصبهم الزائلة، سيرحلون بعار إقصائهم، ومنعهم، وسيبقى الفخر والمجد والرقي لمن منعوهم، وصدوهم، وأغلقوا النوافذ أمام أقلامهم، منعًا من وصول علمهم، وأحرقوا الورق حتى لا تنير بالمداد الطرق. المكاء والتصدية مستمران، كانا قديمًا في الكعبة، وهما اليوم باقيان في ما يشبه الكعبة في مصر، وفي غيرها.

(24)

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذه آية من آيات الوقت، مملوءة تحذيرًا، وإنذارًا لمن يعقل، يوشك من له سمع أن يتزلزل من وقع صوتها المدوي، ويوشك من له قلب أن يمتلئ رهبة، وخوفًا من تتابع كلماتها. الآية ناطقة بأن عذاب الله يوشك أن يعصف بالذين يتنكرون لقيم الألوهية، فلا يرون لله حقًا، ولا يعبأون بتوحيده توحيدًا حقيقيًا، فيمتنعون من سفك الدماء، وقتل الأحياء، ويتوقفون عن التضييق على الأرزاق، الآية ناطقة بأن العذاب يوشك أن يقتلع الذين يعبثون بقيم الربوبية فيستعملون خيره للفتك بخلقه، ويوظفون رزقه للتنكيل بعباده، وينزلون ما منحهم من قوى بعباده الضعفاء. الآية مصرحة بأن العذاب واقع في أي وقت، وهو ما نطق به استعمال الطباق بين: بغتة، وجهرة، وهو نوع نادر من الطباق يعرف بطباق الاستغراق يرمي إلى الشمول، الله تعالى يملك الزمان وهو قادر على أن يبطش بالذين استهانوا بالإنسانية، وتنكروا لقيمها، وهو سبحانه موقع بطشته، وعذابه بالقوم الظالمين، والظالمون هم أولئك الذين نسوا أنهم من طين، وتجرءوا على مقامات الدين، وانحرفوا ساقطين، وهللوا للسقوط في آبار الحيوانية، وصفقوا لقيم الافتراس، واستهانوا بالأعراض

والدماء، الله هنا، ولن يترك الظالمين، ولن يترك الذين فوَّضوا الظالمين وركنوا إليهم، ولن يترك الذين استمسكوا بالحق، وابتعدوا بإنسانيتهم بعيدًا عن الدم، والفرح المخزي بسفكه، والبهجة المريضة بعلو الباطل المؤقت! الله هنا، وهذه هي الحقيقة الخالدة!

obeikandl.com

(25)

قوله تعالى في سورة الشورى ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ من عجيب أمر الكتاب العزيز الذي وقع لي بعد تتبع وتأمل الحفاوة البالغة بمراجعة الأمة في ما يفرط منها، ويقع من أخطائها، سواء كانت منتصرة، أو مهزومة، فقد افتتح الآيات بعد «بدر» ببيان أخطاء الأمة في الأنفال، وأطال النَّفَس في بيان من ساءت أخلاقهم فيها، وفي حنين ألح على الخطأ المروع الذي تورطت فيه ساعة ركنت إلى قوتها، وزهدت في الاعتماد على الله في افتتاح المعركة، ولم تنتصر إلّا بعد أن فاءت لربها، وتابت وأنابت إليه واستمطرت رحماته واستنزلت سكينته سبحانه! والأمة اليوم مأمورة، ومطالبة بمراجعة أخطائها، الأمة مأمورة أن تبدأ من نقطة الإقرار أن ما كان مما وقع وكان، كان بسبب أخطائها هي قبل أي شيء. ولا يقول لي أحد إننا نجيد جلد الذات، أو إننا نحمل أنفسنا فوق ما تطيق، ولا أحب من أحد أن يكون قدريًا فيقول: إن لله مرادًا في ما حدث. ليس لله مرادٌ في عذاب الناس إن آمنوا، واتقوا، وأحسنوا، وتوقوا معاصي الطريق، صحيح أن الذي كان كان بقدر الله، ولكن المعادلة الصحيحة تقتضي :أن نقرر أن الذي وقع كان بسبب أخطاء الصالحين في الأمة. نعم، هذا ما نطق به الذكر الحكيم في ما نقلته لك هنا الآن.

المحنة والهزيمة كسب من كسب الأيدي، وناتج ما اجترحته، وحاصل تدبير، وعمل، في غير الاتجاه الصحيح.

المحنة والهزيمة كسب عقول استهانت بالسنن الكونية التي زرعها الله في الكون، وهي لا تحابي أحدًا، وقد كان من كثيرين حولنا استهانة بالسنن.

المحنة والهزيمة كسب نفوس تورطت فهادنت أهل الباطل، وسارت في ركابهم، ولو بتأوّل خاطيء، ما كان يصح أن يكون.

المحنة والهزيمة كسب قلوب تولت أهل الفساد، وركنت إليهم ولو بخطة وتدرج. المحنة والهزيمة كسب أبدان رضيت أن تتحرك مخدوعة، أو راضية في ركاب بعض أصحاب التاريخ المخزي، وتأكل في صحافهم، وتجلس إليهم على موائدهم. الهزيمة والمحنة بعض عذاب نزل، وخلفه عذاب مقيم عفا الله عنه فلم يقع! الله هنا، والله لا يغيب!

obeikandl.com

(26)

يقول تعالى ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ أما أن مراد الله تعالى هو نصرة المؤمنين فهو الظاهر، وهو الحق الوحيد، لا يرتاب في ذلك أحد، وليس لأحد أن يرتاب، وإلّا اختل عمل العقل، وحصاد المعرفة، وطبائع الشرائع! الآية من آيات الوقت، والمتأمل في سياقاتها يدرك أن الله سبحانه ناصرٌ الحقَّ، ومعزّ أهل الإيمان.

الآية تقرر أن الانحياز للإيمان في مواجهة الشرك هو باب الفرح الواسع.

الآية تعلن أن علو الباطل مرحلي، وأن انتصار المؤمنين نهائي.

الآية تصرح بقدوم الفرح، وتعالن بالفرح القادم، لكن بشرط تحقق الإيمان ومخاصمة الذين كفروا ممن سماهم الكتاب العزيز كفارًا، في آيات كثيرة، تجدها في إعلان الذكر الحكيم عنهم بالتعبير الإخباري المدهش ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ...﴾ المؤمنون اليوم مطالبون بمراجعة الذين اصطفوا في صف الباطل ممّن يخاصمون مقامات الإيمان، و مأمورون بمراجعة مواقعهم من معسكري الإيمان وغيره، حتى يصح منهم ترقب الفرح الآتي عندما يأذن الله سبحانه بتنزُّل النصر على المؤمنين! الله يحمي عباده، الله لا يخذل عباده، الله يحوط عباده، فكونوا مؤمنين، وكونوا من عباده!

(27)

يقول تعالى ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من خصائص الأمة المسلمة امتلاكها المرونة الكافية التي تمكنها من امتصاص الأزمات، والهزَّات بلا انكسار، وبلا غياب تام وهو ما يؤكده الوحي النبوي الذي يقرر أنه أُعطي ما لم يُعطه نبي قبل المصطفى، وهو ما تمثل في حفظ الأمة، وأنها أمة آمنة من عذاب المحو والاستئصال. في هذه الآية الجليلة البديعة بيان لدستور الفرح، وبرنامج واضح للبهجة المؤمنة، والسعادة البيضاء. إن الله يعلِّم الأمة أن تحسن صناعة البهجة الخضراء التي يغمرها الرضى والهدوء والبشاشة، من أجل أن تجدد طاقتها على الإنجاز، وتجدد قدرتها على البقاء المثمر، وتشحن طاقتها على مقاومة عوامل الهدم، والسقوط. والفرح هبة ربانية طريق تحصيلها أن تعرض الأمة نفسها لفضل الله تعالى، ومحددات استنزال هذا الفضل ماثلة في طاعته، واستغفاره، وتقواه، والعمل النافع بين خلقه، وإعمار الوجود. والفرح منحة ربانية طريق حيازتها أن تتحلى الأمة بالتراحم في ما بينها، وأن يستبقي الأفراد مقومات إنسانيتهم، وأن يصونوا أنفسهم من مغبة السقوط في حمأة الحيوانية، التي تهش للدم الإنساني، وتعلو وجوهها البسمة المريضة لمطاردة الناس، وتطفح قلوبهم بالسرور المخزي من خوف الخلق! إن الأمة مأمورة أن تتعلم صناعة الفرح المؤمن الأبيض الذي يرقى بالوجود الإنساني،

ويرجو أمانه، واستقراره، وشبعه! والأمة مأمورة أن تحسن صناعة الفرح الآمن البشوش الذي يحيل الوجود إلى جنة أرضية هانئة. والأمة مأمورة بأن تجوّد صناعة البهجة الصحية، التي تتوق إلى حفظ النفوس، وحفظ أمانها، وصيانة قلبها من الأوجاع! الله يدعونا لحصاد الفرح والبهجة التي تنبت على حياض فضله، في بساتين رحمته، فلا تحرموا أنفسكم من الفرح بالله!

obeikandl.com

(28)

يقول تعالى ﴿ٱذۡهَبَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ هذه آية من آيات الوقت تعلن أن للمسلم واجبًا متعينًا هو الحركة الواسعة في مواجهة الطغيان في كل تمثلاته، وأشكاله، ومناهجه، ورموزه، وعصوره! وفي الآية وما بعدها إشارة للحركة المهتدية بضابط العقل المستقيم، وناتج الثقافة الراقية المعجونة بالمنجز الجمالي، وهل القول اللين إلّا حصاد الفكرة الراقية المصوغة في ثوب من البيان المشرق، المختلط بالجمال الذي رائده اللين؟! صحيح أن الأمر لنبيَّيْن، ولكنه انفتاح على الزمان ليكون منهجًا دائمًا في مواجهة كل فرعون، وفي مواجهة كل استبداد، وهو أمر يحمل على استنهاض المجموع، والتحرك بالمجموع، والمواجهة في سياق المجموع، واستفزاز لطاقات المجموع، وحفز على تجاوز الفردية، في استعمال (اذهبا) أمر بالحركة، وفي (قولا) أمر بالفكرة، وفي الأمر بهما معًا استنهاض للقدرات جميعًا، ودفع في الاتجاهات جميعًا، وتقدير للميدان محكومًا ومهتديًا بعطاء الفكر والوجدان! وفي التعبير بالفعل(طغى) ماضيًا حملٌ للمأمورين أن يتوسعوا في جمع صور الطغيان، والحركة لمواجهتها، وعدم الاستهانة بصورة من صوره، وعدم الأمان لأي من أجنحة الاستبداد! الآيات الكريمة منهج قائم دائم يعلن أن الطغيان منقطع بالحركة، والفكرة، والبيان، والفنون، واستفزاز الوجدان من الإنسان!

(29)

يقول تعالى ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ هذه آية جلالها منقطع النظير، يتوعد فيه ربنا الذين يقتلون الناس ظلمًا، من دون أن يتعرض لذكرهم، إمعانًا في ذمهم، وإمعانًا في الزراية بهم عندما اصطفوا في صفوف الظلم. لقد قرر الله تعالى ﴿سُلْطَٰنًا﴾ للمقتول مظلومًا، والسلطان كلمة متفجرة الدلالات، وسيعة المعنى لا حدود لسعتها الدلالية بدليل استعمالها نكرة في الموضع الشريف.

والله تعالى قادر على أن يحوِّل أوضاع الناس، وينتقل بها من حال إلى حال، إنه قرر، وفرغ من قراره، وأكده، ودعمه، ساعة قال :

(فقد جعلنا)، فالجعل تحويل، وتغيير، والماضي يقين، وفراغ من الأمر، واستتباب له، و «قد» صانعة لدعم اليقين، مقوية له. الآية العظيمة تتجاوز بمعجمها المهيمن، والمحوّل، وبتركيبها المسيطر المعتمد لبني التوكيد والتقوية بالفعل، والحرف جميعًا حدود الوعد بالانتصار للدم المغدور إلى – حدود التحذير من الإسراف عند الانتصار لهذا الدم المظلوم.

والآية العظيمة تتجاوز حدود الانتصار لدم بعينه إلى آفاق الدم الإنساني، لأنه جليل، ولأنه إنساني، إن الله قرر الانتصار للدم المغدور

المظلوم أيًا ما كانت هويته، أو جنسيته، أو لون بشرة الذي يتدفق في بدنه، الله يقول ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ و «من» في برامج النحو العربي اسم من أسماء العموم، للرجل والمرأة، والواحد والواحدة، والقليل، والكثير، وقُتِل بالبناء لغير فاعل إمعانًا في الانتصار للدم المغدور غير المتعين، الدم الإنساني فقط أيًا ما كان حامله، والقيد المحقق للانتصار للدم أن يكون سفكه ظلمًا، وأن يكون هدره غدرًا، وأن تكون إراقته افتراءً، ووحشية، الانتصار واقع لا محالة بضمان العقد الموثَّق بـ «إن» التي للتوكيد، وبضمان الفراغ من إقراره بكان التي تبرهن على انعقاده، ووقوعه في علم الله تعالى يقينًا، الانتصار واقع لا يقطعه زمان بدليل انفتاح الوعد به على الزمان جميعًا، وبدليل غياب القرائن الزمنية المقيدة له. الله وعد، والله قرر، والله انتصر للدم المغدور، والله لايخلف وعده، ولا يتخلف قراره! آمنوا بالله وحده!

(30)

يقول تعالى :﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ هذه آية جليلة ترسي قاعدة صلبة في الحركة للحياة وفق المنهج الذي ارتضاه الله.إنها تقرّر أن سبيل النصر محدد بمنهجية واضحة تتلخص في مداومة الإقبال على الله، والانكسار بين يديه، والافتقار إلى عفوه وغفرانه، وهو الأمر الظاهر في الدعاء ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا﴾، ومداومة مراجعة النفس، والاجتهاد في محاربة الذنوب، والتخلي عن طريقها، وهو الذي ظهر من الدعاء ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ التوقي من الإسراف في الأمر، شططًا عن الطريق، أو استهانة بحدود الطريق، أو تفريطًا في مطالب الطريق، أو إفراطًا وزيادة على محددات المنهج والطريق بتأويل ودعاوى، والثبات على المنهج، وعدم الشك فيه، والركون إلى المباديء المستقرة، وعدم الالتفاف عليها، الله يقول ﴿وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا﴾ وهو أمر دائم لأنه جاء بصيغة دالة على زمان مبهم ما كان ولا وقع! بعد هذه جميعًا، وبعدها مجموعة، وبعدها غير ناقصة، وبعدها مسلّمة يكون نصره الذي لا يتخلف، ﴿وَٱنصُرۡنَا﴾ إن النصر متحقق بالتمايز عن أهل الباطل، ومتمايز بمخالفة الطريق الذي يسلكونه، وبمعاندتهم في خطوات منهجهم، وباليقظة الماهرة، والتخطيط المستوعب للزمان والمكان والبشر والموارد والأحوال والتاريخ والمكر الذي يمكرونه، والخداع الذي يحسنونه!

(31)

يقول تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصۡبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾ هذه آية من آيات الوقت والزمان؛ لأنها تدعونا إلى ما به مواجهة الشدائد والمحن، والكوارث والنكبات. الله ينادي المؤمنين من دون غيرهم، ويناديهم بغير المشتق منعًا من التحول عنهم، والله يأمر الذين آمنوا واطمئنوا إلى ركنه تعالى، وصدقوا بموعوده أن يصبروا ويحتملوا المكاره، وأن يصابروا فلا يتركوا دين الله، ولا يخذلوه، وأن يرابطوا فيستمسكوا بالحق مع اجتماع أهل الباطل، وتكتلهم، وشغبهم على أهل الحق والخير والإنسانية والخلق الكريم، والله يأمر بالتقوى والاحتياط من الشر، والتوقي من السوء، وتحري الحلال، والامتناع من الحرام في العبادات والمعاملات، واجتناب الحرام في السياسة والاقتصاد والسلوك، إن طريق الفلاح والانتصار مستقيم، داني الثمرات، ظليل، يلوح الخير بعد قليل من السير فيه، إن طريق استعادة الحق يُولَد في النفس أولًا، وطريق كسر الباطل يولَد من رحم الإرادة أولًا، وطريق النور يبدأ من التحمل والتجلد، واستجماع صفات الرجولة والمروءة.

(32)

يقول تعالى ﴿وَٱجۡعَل لِّي وَزِيرٗا مِّنۡ أَهۡلِي ٢٩ هَٰرُونَ أَخِي ٣٠ ٱشۡدُدۡ بِهِۦٓ أَزۡرِي ٣١ وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢ كَيۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا ٣٤ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا ٣٥ قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ هذه آية تأخر تدبرها، وتأخر تدبرها جرّ مشكلات ومحنًا، على أن تأخر تدبرها غير مانع من معاودة النظر فيها، وتصحيح المسارات على هديٍ مما ورد فيها، وتضمنته.الآية تعلن أن النجاح وليد التجرد والاعتراف بملكات من نتصور أنهم دوننا في المنزلة والطبقة، إن نبوة موسى لم تمنعه من تقدير مواهب غيره، ولم تمنعه من توظيف مواهب الخلق، طلبًا لأداء المهام على أكمل وجوهها. هارون ظهر في سياق القصص القرآني مالكًا لما لم ير موسى نفسه مالكًا له، فدعا الله أن يجعله بجواره، مؤازرًا، وشريكًا، وهارون كان مبينًا بدرجة أعلى من غيره، ﴿هُوَ أَفۡصَحُ مِنِّي لِسَانٗا﴾! كيف غاب عن نفر من المعاصرين من العاملين للإسلام أن يفيدوا من تقدير موسى لبيان هارون؟!وكيف غاب عن هؤلاء الذين تصدروا أن يراجعوا سياقات الحكم في الذكر الحكيم، وهو أصدق السياقات جميعًا؟ كيف غاب عمن نصبوا أنفسهم قادة للعمل الإسلامي أن يوجهوا فريقًا من أبناء تياراته لدراسة الفنون، والإعلام، والدراما، والمسرح!؟ كيف غاب عنهم وعي المؤسس الرائد الذي كان واسع الأفق،

ملهم الرؤى، قريبًا من روح التصور الإسلامي الحضاري؟! سؤال موسى منبيءٌ عن قيمة البيان، وقيمة الإعلام، وقيمة التجرد، وقيمة تصدير أهل الكفاءات، وقيمة التواضع العملي، وقيمة المشاركة في النهوض بالحكم والعمل للأمة، وقيمة تقاسم القيادة، واحترام الاختصاصات!

المحنة الراهنة كسبُ أيادٍ لم تتناول الكتاب العزيز بما هو واجب نحوه.

المحنة الراهنة كسبُ عقول خانت مواريث الوحي عندما لم تُعمل نتائجه في واقع الحياة.

المحنة الراهنة كسبُ قلوب لم تَمِلْ مع الحق، وكسبُ نفوس أخرت الإفادة من مواهب أصحاب المواهب، وأخرت استثمار أصحاب البيان، ولم تتنبه لقيمة الفنون والإعلام، وأمامهم نبي من أولي العزم من الرسل يسأل الله استوزار رجل يحوز مواهب البيان، من أجل إعلام قوي، في مواجهة إعلام الطغيان!

(33)

يقول تعالى ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ هذه آية جليلة القدر يتغافل عنها خلق كثيرون، وهي واقعة بعد الفرح المريض الظالم، وواقعة بعد نسيان ذكر الله تعالى، ونسيان ما أمر به سبحانه، وواقعة بعد الاستكبار في الأرض، والتعالي البغيض اغترارًا بالقوة الغشوم، وبعد انفتاح الدنيا، وانفتاح كل شيء على الظالمين.الآية بعد الفاء مؤذِنةٌ بأن ما بعدها محمول على العقاب المترتب على ما كان ووقع، وأن ما قبلها هو الطريق المفضية إلى المصير المنشود للظالمين! الآية تفتتح أمرها بعد الفاء بكناية مزلزلة، تعلن عن المحو التام، وتعلن عن إزالة كاملة لكل الظالمين، وتعلن عن أنها تتعقبهم، وأنها لن تبقي منهم أحدًا، ولن تذر منهم أثرًا. وهي كناية منبئة عن احتقار، وعن إهانتهم، وعن الزراية بهم، وعن خفض رتبتهم، وعن تأخير طبقتهم، وعن تراجع نوعهم، وعن إلحاقهم بما دون البشر من الأنواع! والآية تتوعد الظالمين في كل جيل، وتَحكّم الظالمين في أي بقعة أو مكان، ومن أجل ذلك استعملت الآية :الذين ظلموا، ولم تستعمل :الظالمين، لأن الظالمين مشتق، واستعمال المشتق مؤذن بالتعيين، ومؤذن بالانقطاع! الآية نص في البشارة، والآية نص في الفرح القادم، والآية نص في البهجة الساعية نحو أهل الإيمان، والآية نص

في زمن البراءة الذي يطل على المقهورين، والمغلوبين، والمظلومين، والمغدورين! ويوم تحل البهجة، ويوم يبرأ العالم من الظالمين والغادرين والمستكبرين، تتنزل النعمة كاملة، وتشيع الفرحة العامرة، وتتجلى رعاية الرب الكبير الكريم سبحانه! الله قال، فصدّقوه، والفرحة قادمة فاستعدوا لها بمجامع المحامد كلها!

obeikandl.com

(34)

يقول تعالى ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ كثيرًا ما يقسم الذكر الحكيم بالصبح إذا تنفس، وبالصبح إذا أسفر وأضاء الوجود، وذلك لأن الصبح علامة لا تخطؤها عين، عند عموم النور والضياء، وهو ما لا يقدر أحد على إنكاره أو إخفائه. ولكن في القَسم بالصبح دلالة أخرى، تبعث الأمل في النفوس، الصبح إقبال بعد إدبار، والصبح حياة بعد موت، والصبح حضارة بعد خمول، والصبح أمل بعد يأس، والصبح انتصار بعد هزيمة. الصبح في الثقافة العربية نشاط، وحيوية، الصبح أمل، ترقبوا الصبح، وتهيئوا لانبلاج ضيائه، واعملوا لميلاده، والله تعالى مؤذن بهذا!

openkandil.com

(35)

يقول تعالى ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ هذه سورة جليلة القدر جدًا، منيرة للطريق جدًا، كاشفة عن رحمة الله تعالى. السورة الجليلة درس عبقري في النذارة، والنذارة هي الباب الوسيع للرحمة الإلهية. السورة تنذر الإنسانية بأن أمرها مشمول بالخسران، وتوشك أن تقرر أن مرد الخسران المطيف بها، مأتاه من الأنس المطغي، أو من النسيان المضيع. ثم إن السورة تفتح باب الأمل في النجاة من هذا المصير المرعب، وتفتتح الإعلان عن هذا الأمل بحرف الاستثناء ﴿إِلَّا﴾، إلا :هي عنوان الأمل، وعنوان النجاة، وعنوان البشرى! وطريق النجاة في تجدد الإيمان، والعكوف على العمل الصالح، والانضمام للحق، ومخاصمة الباطل، والصبر في البابين جميعًا، الصبر في منع النفس من السقوط، والبهيمية، والغدر، والخيانة، والصبر على التمسك بالحق، والتمسك بالإنسانية، والارتقاء في مدارج الملائكية. السورة تنذر، وتعلن أن ميدان الخسران ممتد، محيط، مستغرق،عاصف، قاصف، والسورة تعلن الفرصة المواتية للنجاة، بالإيمان، والصلاح، والانحياز للحق، والتزامه، والصبر على طريقه! النجاة ممكنة، والخسران مستعمرة الذين فقدوا طريق الله!

(36)

يقول جل وعلا: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ هذه آية بديعة تعلو نظمًا، وترقى في باب البيان سمتًا، ورجائي ممّن يطالع تأملي لها أن يستقبلها في سياق من العموم، ويغمض الطرف قليلًا عن حدود سياقها الضيق. الآية تفيض بنوع إيقاع جليل، ساكن، هادىء، وضيء، والآية مثال فريد للإمكانات التي تسكن بنية النصوص غير الشعرية في تاريخ العربية، ولم يتنبه لها أحد في زحام الانشغال بإيقاع الشعر! الآية مدهشة من لحظة الإسناد التي أسند فيها فعل الإشراق إلى الأرض في إدهاش عجيب، مزلزل، أخّاذ، مقتحِم، والإشراق دلالة متجاوزة، متفجرة، تحتوي النور، وتزيد عليه، وتظهر الأرض فيها عروسًا يوم جلائها، وزفافها، وضيئة، حلوة، خصبة، زاهرة، عطرة! وسر ذلك ماثل في الباء، التي تكتنز بالمعاني! الإشراق الزاهر سببه نور الله الغامر، وآلته نور الله العامر، وتعديه إلى الأرض بقوة الله القاهر! للباء حديث عذب مطمئن في الآية، يعالن معترفًا بقدرة الرب ذي النور الباهر، ويبعث بالأمن في نفوس المتعبين على أرض الله التي تتشرب النور فتشرق، وترتوي بالنور فتزهر، وتعب من النور فتشدو وتتعطر! الرسالة واضحة، والنور الساطع حاسم، والظلم منقطع، ومصير الظالمين مروع، محزن، مؤلم، قاصم! اطمئنوا يا ملح الأرض!

(37)

يقول تعالى ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هذه آية جليلة تمثل قاعدة قرآنية ثابتة، الآية تعالن بأن العمل هو المحك، وتعلن أن المؤمن ينبغي أن يكون ثابتًا على مبدئه، يطمئن ثم ينطلق، الآية تعالن أن صاحب المنهج، وأن المسئول عن بلاغه ثابت على موقفه، تأملوا إعلانه: إني عامل، الجملة اسمية بلا قرائن زمنية توقفها عند حد بعينه، لتبرهن على أن الثبات يجب أن يكون استراتيجية دائمة، وأنه لا تحوَّل عنها، وأنها لا تتأثر بما حولها، زيادة، أو نقصًا، هدوءًا أو صخبًا، انتصارًا أو انكسارًا، التفافًا، وانفضاضًا! والآية تستصحب التوكيد بأن؛ منعًا من الشكوك، أو التوتر، أو التراجع، التوكيد بأن عباءة تستر عورات النفوس التي تتربص وتتحين الفرص للنفاق، وتغيير المواقف! الآية تقرر أن ثمة طريقين: طريقًا اختار مواجهة الحق، والركون إلى الشر وإلى الدنيا، وهو فريق يستوي في قوائمه من كان قائدًا، أو رائدًا، أو داعمًا، أو واهمًا، أو مجادلًا عنه، أو مدافعًا، أو متوقفًا، أو ساكتًا راضيًا، كلهم فريق واحد، وطريقًا آخر في صف الحق مبتلىً، أو مطاردًا، أو مستبعدًا، أو مُضيقًا عليه، أو محارَبًا، أو خائفًا، أو رافضًا، أو متعاطفًا، كلهم فريق. والله تعالى يعد، ووعده لا يتخلف أبدًا، أن العاقبة للذين يثبتون، وينتصرون للحق، ويحتفظون

بإنسانيتهم، ولا يأبهون لمخاوف الزمان، أو لمطاردة الشرور، أو لتضييق، واستبعاد، وإقصاء، ومنع! العاقبة مستقبل زاهر للحق وأهله! العاقبة إشراقة الشمس في الصباح القريب!

العاقبة فرحة النفوس التي استمسكت بالأمل، وتعلقت بالنور، وآمنت بالله القادر!

العاقبة هي البهجة التي لن تنقطع؛ لأن الكلمة الخاتمة تعلن بهزيمة الظالمين! الله قال، الله وعد، صدِّقوا الله.

obeikandl.com

(38)

يقول تعالى ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ هذه آية من آيات الوقت، تفرض الظروف معاودة تأملها، والتنبه لما فيها، ويسكنها من معان مهمة، وحقائق ساطعة، الآية تخبر عن حقيقة وحدة الأمة، وحقيقة تماسكها، وربما أشارت إلى شيء من محددات هذا التماسك، وهذه الوحدة، صحيح أن للأمة في المعجمية العربية، والقرآنية معان متعددة، تدور حول الدين، والشريعة، ولكنها أبدًا لا تبتعد عن المفهوم المعلن لها بما هي مجموع من الخلق متمايز من غيره، الآية تعالن بواحد من أخطر محددات الهوية، وهو المحدد المعلن في الدين، والشريعة، إن الآية تخبر عن حقيقتين ظاهرتين، هما: الأمة بما هي المجموع البشري المجتمع الواحد المتمايز في تكوينه العقلي والثقافي، والأمة بما هي الدين الواحد، والشريعة الواحدة الصانعة لأهم محدد للهوية، وهو الوحدة الفكرية والثقافية، ثم إن الآية تنتهي إلى الطريق العملية الصانعة لهذه الأمة المتحدة، ساعة تأمر بالإقبال على الرب المنعم، المتربب لخلقه، الراعي لهم، وساعة تأمر بعبادته، قيامًا بالدليل على الدعوى الإيمانية، الآية تفتح الباب إلى أهمية قراءة الكتاب العزيز من منظور جديد يضبط دراسات الروح القومية، الأمة الواحدة حلم ممكن.

الأمة الواحدة أمل محتمل.

الأمة الواحدة حقيقة كل عصر.

الأمة الواحدة معيار تصحيح الطريق.

الأمة الواحدة التحقق الفذ والعملي للتوحيد.

الأمة الواحدة التنزل الواعي للفهم الصحيح للعبادة.

الأمة الواحدة منتهى حصيلة ما أنجزه العقل المسلم أيام عافيته الحضارية.

الأمة الواحدة نداء السماء الدائم!

obeikandl.com

(39)

يقول تعالى ﴿ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴾ هذه آية من آيات الوقت، وآية من آيات الزمان عندما تتكاثر الآلام على الأبرياء!

الآية تشرح سلوك نبي كريم تجاه ما لحق ابنه الصغير البريء من آلام نفر فقدوا إنسانيتهم، واغتالوا الرحمة في قلوبهم، وانساقوا لغل قاتل، وحقد مروع، وكراهية بغيضة انحطت برتبتهم!

الآية تقرر أن منهج السماء المُرضيّ ماثل في التعاطف الحي النبيل مع ضعف الضعفاء، وعذابات المعذبين من أبرياء خلق الله تعالى!

الآية تعالن بأن القلوب الرحيمة تتقطع للإنسانية المعذبة، وتتفطر للطفولة المهدرة، وتتمزق للمبعدين!

الآية تنتصر لقيم الشعور الحي بألم المتألمين، وتعلي من قيم الرقة الظاهرة لما ينزل بالأبرياء، والأنقياء، وأهل الصلاح الأوفياء!

الآية تعالن برفض الغل، والتشوه النفسي القاتل الذي يسوّد وجه الحياة.

الآية ترفض الحقد الأسود الذي يتآمر على الأنقياء الأطهار لأنهم أنقياء وأطهار!

الآية تفضح نفوسًا لا تحب، وتعري قلوبًا سقطت.

الآية تنصح بمخالفة طريق الذين ارتضوا طريق الرضى بعذابات الناس، ولم تترفق بآلام الإنسان.

الآية تأمر بتجنب طريق هؤلاء الذين انساقوا وراء التشوه، والحقد المريض!

الآية تقول :ابكوا من أجل الأبرياء المعذبين المبعدين المكلومين.

obeikandl.com

(40)

يقول تعالى: ﴿وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ هذه آية من آيات الزمان والوقت، تنهى، وتتجاوز بنهيها حدود النهي إلى التحذير، والنذارة، والتبصير بالطريق. الآية تحذر من مغبة الركون والميل والاعتماد والاستناد والاطمئنان إلى الذين ظلموا. والذين ظلموا أنواع متراكبة يجمعهم نوع العُصاة الذين انحطوا عن مقامات التقوى، وسقطوا بعيدًا في وحل الحيوانية، وارتكسوا في مستنقع معاداة الإنسانية والطهر والبراءة والنقاء وعادوا أهل الإيمان، واستضعفوا جانبهم! الآية تحذر من سوء عاقبة الافتتان بقوة الذين ظلموا، ومن الافتتان ببطش الذين ظلموا؛ لأنها قوة زائلة، وبطش منكسِر بعد قليل؛ ولأنها قوة فوقها قوة القادر سبحانه؛ ولأنه بطش دون بطش المقتدر سبحانه! النيران موعودة للذين يركنون ويميلون ويعتمدون ويفوّضون ويحرّشون وينافقون ويدعمون الذين ظلموا أنفسهم ساعة اغتالوا إنسانيتهم، ثم ظلموا ملح الأرض من الأطهار الأنقياء الأبرياء من الأطفال والبنات والعجائز والشيوخ، والذين رأيناهم يذرعون الأرض في خدمة الناس، ويملأون المساجد رغبة ورهبة لرب الناس. وهي موعودة أيضًا للذين ظلموا. الآية تقرر أن النصر لن يكون لواحد من فريقي الذين ظلموا وعصوا وارتكسوا،

أو الذين ركنوا ومالوا واعتمدوا ونافقوا وفوّضوا وارتاحوا إلى جناب الذين ظلموا. النصر للذين لم يظلموا، ولم يخونوا الله ورسوله ويخونوا إنسانيتهم! النصر للذين لم يركنوا ولم يميلوا ولم ينافقوا ولم يحرّشوا ولم يفرحوا بالدم الطاهر الزكي الذي سُفك، ولم يتألموا للطفولة البريئة التي عُذبت، وللأنوثة الخجلى المؤمنة التي انتُهِكَت! النصر للذين آمنوا، ولم يظلموا، ولم يركنوا للذين ظلموا! النصر للذين قاوموا، وحافظوا على إنسانيتهم، وتألموا للدم الحرام، وللطفولة المعذبة، وللأنوثة الكريمة المهدرة، وللمبعدين، وللمطاردين، وللمحاربين، وللمضيَّق عليهم! النصر من الله للذين رعوا حقوق الله!

obeikandl.com

(41)

يقول تعالى ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ هذه آية جليلة يحتاجها الناس اليوم ليعيدوا وزن أنفسهم على هديها، ويعاودوا عرض انتماءاتهم على ميزانها. الآية تعالن بالمنّة الكبرى التي انتقلت بالإنسانية من الوهاد والسقوط والانحطاط والظلام والضياع، إلى القمة والارتقاء والعلو والنور والاستقامة، والآية تعالن بأن بعث محمد ﷺ الذي هو الرحمة العامة والخاصة كان منة وفضلًا ورزقًا وخيرًا، وأنه من الناس، وأنه أشرف الناس، وأنه أرفعهم، وأعلاهم إنسانية، وأكثرهم نفاسة! الآية تنتصر للذين اتبعوه، وتعلموا منه، وتذكروا هديه، واستصحبوه، واستحضروه، وداوموا على تلاوته ومذاكرته واسترجاعه والاقتداء به، والآية تقرر أن المعيار في الانتساب إليه ﷺ ماثل في التطهر، والتزكية، والإنسانية، والانتفاع العملي والإيجابي بما جاء به من وحي وأخلاق.

ليس من النبي من خان! ليس طاهرًا من سفك الدماء، ليس زاكيًا من فرح بالنار، ليس مستصحبًا حكمة ماجاء به من غدر، ليس قد تعلم شيئًا من رضي، وبارك، وهلل، وسعد، ورقص على الأشلاء!

ليس إنسانًا من سوّغ، ولا من فوّض بالباطل أهل الباطل ليفتكوا بمن

عاش بعيدًا عن الباطل!

ليس مؤمنا من أسقط ميراث النبوة، فلم يتلُ ما جاء فيه من إنكار تعذيب الخلق، ليس مؤمنا من تنكر لميراث النبوة الخالد ففرح بالتعذيب والتشريد.

ليس مؤمنًا كل من أعان على الطاهرين، وكل من أشاع الخنا وروّج للماجنين.

فيا كل الذين يتطهرون..

ويا كل الذين يتلون الآيات..

ويا كل المستمسكين بنور الوحي النبوي الإنساني المبين..... اطمئنوا!

obeikandl.com

(42)

يقول تعالى ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ هذه آية يجب أن تستعلن الآن، الآية تقرر أن الظلم هو الباب الواسع لإغلاق باب الطيبات على الذين ظلموا الخلق، وارتكسوا، وخانوا إنسانيتهم، واغتالوا قيم المروءة، وولغوا في البطش، وفرحوا بالفحش، وروّجوا للشيطان، الآية تفتح الباب وسيعًا أمام تأمل العقوبات التي رصدها الكتاب العزيز للظالمين في الدنيا والآخرة؛ لأن ذلك مهمٌ جدًا في الانتصار للحق، ومهم جدًا في الثبات على الحق، الظلم مصنع النار للظالمين في الدنيا والآخرة! آمنوا، وصدقوا! الآية وإن بَدا منها عطف على المظلومين، وترطيب لخاطرهم، وفتح لباب الأمل الوسيع كي يصمدوا، ويقاوموا، فهي نص في التحذير من مصير الذين ظلموا، وتخويف من مصير الذين يصدون عن سبيل الله تعالى، وما أكثرهم في هذا الأوان، والنذارة للذين يأكلون باسم الحرام، وهم منهيون عن أكل الحرام، والاستمتاع بالحرام، ومشايعة الحرام، وخدمة الحرام!

(43)

يقول تعالى ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ هذه آية جليلة القدر جدًا، وبديعة جدًا، ومطمئنة جدًا، ومحفزة جدًا. الآية تملأ النفوس أملًا، وتعمر القلوب بالأنس بالحق، والاطمئنان إليه. الآية تقرر أن النور غامر، وأنه قريب جدًا، وأنه سيكون دائمًا، لا يقطعه أحد، ولن يمكنه، ولن يستطيع. الآية توحي بتفشي النور، وتؤكد ذلك، وما الفعل ﴿ وَأَشْرَقَتِ ﴾ الماضي، وبنيته التي يتقدم فيها صوت الشين بتفشيه ليدعم ما نقول إلّا قرينة على ما نراه ظاهرًا في الآية. الآية تعالن أن الباطل منقطع، وأن عمره مهما امتدت الدنيا قصير، وأن الله يحصي على الظالمين، ويترصد الظالمين، ويجمع لهم الدليل بعد الدليل حيًا شاهدًا على تورطهم في ما سقطوا فيه، وارتكسوا في حمأته، وأنه قائم لن يفلتهم ساعة ينصب الميزان، يوم الفصل!والآية تعالن بأن يوم الفرح الممتد الذي لن ينقطع قادم، سيظل المؤمنون من الذين يتمسكون بالحق! النور يتقدم نحونا، وأشعته المتكاثفة ترنو نحو أهل الحق، وعما قريب يلتقي النور بالأرض ويتعانقان ليولد الإشراق العامر الغامر المنبسط المتفشي الحي النامي الرحيم! فيا أهل الحق بشراكم بالنور، وبشراكم بالإشراق!ويا أهل الباطل والظلم بشراكم بالظلام والإغلاق! الله باق، والإشراق موعود به.. فاطمئنوا، واعملوا!

(44)

يقول تعالى ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ هاتان آيتان من آيات الوقت، والمرحلة، والزمان الذي يظلنا. الآيتان تعلنان أن العناية الإلهية يقظة أبدًا، تلتقط ما يقال، وتسمعه، وتأمر به فتدونه، وتكتبه، كتابة الجامع المحصي الذي لا يفلت شيئًا، وكتابة المسجل الذي لا ينسى شيئًا. ثم هما تعالنان بأنهما تضمان إلى المحفوظ من المكتوب جرائم أخرى هي قتل الأطهار الأنبياء، ومن معهم في الطريق بغير حق، ولا ذنب، ولا جريرة، ولا علة بادية في الناس أو خافية. الآية تربط بين القول الذي يمنح الرخصة في القتل، وبين القتل الذي هو ترجمة للقول المريض الذي أعلن التفويض. الآيتان تكشفان عن المصير، الماثل في عذاب الحريق، وليس أي حريق! الآيتان تعالنان بأن اليد التي سطّرت، وكتبت، وشرحت، ونافقت، ودافعت، وأن اليد التي صفقت، ولوَّحت، وأشارت، وأن اللسان أخو اليد الذي دعا، وهلل، وشجع، كلها في الجريمة سواء. عذاب الحريق بعض آثار عمل اليد التي كتبت، واليد التي سحلت، واليد التي بطشت، واليد التي سجنت، واليد التي قتلت، واليد التي زوّرت، واليد التي خانت، واليد التي غدرت! عجيب، ثم هو عجيب جدًا أن تجمع الآيتان بين القول والقتل،

هما أخوان، القول أخو القتل، بقرينة القاف المفتوحة في الفعلين، وبقرينة الدلالة المعجمية التي تربط بينهما، وبقرينة الجناس الجزئي فيهما، القول حركة مفضية إلى حركة القتل! الله لا يعرف الظلم!الله لا يُنسب له ظلم! يا أهل الباطل قولوا، واقتلوا، فالله يكتب ما تكتبون، والله يكتب ما تقتلون!

obeikandl.com

(45)

يقول تعالى ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ هذه آية كأنما تتنزل اليوم، وهو شعور سببه كثرة الجراح، وسببه كثرة الآلام، وسببه كثرة الوجع، وسببه كثرة الدم المنزوف، الآية تدعو المؤمنين أن يخاصموا الانكسار، وأن يجافوا الوهن، والضعف، الآية تأمر بألا نتوقف عن العمل، وألا نتوقف عن مواجهة الباطل، الآية تنهى عن الضعف، وتنهى عن الخَوَر، وتنهى عن السقوط، وتنهى عن التراجع عن نصرة الحق، وتنهى عن التوقف، وتنهى عن قطع طريق الصبر، والمقاومة، والمواجهة لكل باطل، وفاسد، ولئيم، مريض القلب والعقل، الآية تربط على القلوب التي يحدثها الشيطان، ويراودها كي تتوقف، وتصمت، وتضعف، بما يقرره، ويعالن به :الآلام في الفريقين، والجراح بالقسمة، والوجع موزّع!الآية تقرر أن فريق المؤمنين يزيد مع آلامه وجراحه التي هناك مثلها في صفوف عدوه شيئًا لا سبيل إليه عند عدوهم، هو رحمة الله، وهو رجاء الله! الله يربط على قلوبنا!الله يقول لنا.. رجاؤكم فيّ لن يخيب! فيا أهل الآلام من المؤمنين، ويا أهل الجراح من المؤمنين تعلقوا بالرجاء في الله! ويا أهل الآلام من المؤمنين، ويا أهل الجراح من المؤمنين، استمروا، ولا تنكسروا! الانكسار في مواجهة الباطل هوان! الانكسار في مواجهة الباطل خذلان لميراث السماء! الانكسار في مواجهة الباطل خيانة، وعصيان!

(46)

يقول تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلۡحَقَّ وَهُوَ يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ﴾ هذا جزء كريم جدًا، من آية كريمة جدًا. الآية تقرر أن ما يقوله الخلق وهو مخاصم للحق دعاوى فارغة، ومزاعم عما قليل ساقطة. الآية تعلن أن الحق وحيد، وأنه من الله نازل، وأنه مركوز في التنزيل، وأنه مخبوء في حنايا بلاغ نبيه المعصوم. الآية تعالن بأن ما يقوله الأدعياء بسبب شهوة ساقط، وأن ما يسوقه المجرمون خوفًا، وفَرَقا، ورعبًا، وفسادًا، وانبطاحًا هو رغاء أفواه منتنة، وهو زبد قلوب سوداء، وهو مجون عقول سكنت رءوس السفهاء. الآية تدعو إلى علم يرعى الحق، ويهتدي بهداه. والآية تتبنى إعلامًا ينطق بالحق، ويخاصم الشهوات المريضة، ويجافي المجون والبذاءة. الآية نور يضيء العقول والقلوب، ويمسّك بمنارات الطريق للذين يرومون النجاة. الله يقول الحق، فالتمسوه عنده، بين سطور وحيه. والله يقول الحق سبيلًا للهداية فلا تضلوا عن الطريق. الآية تسقط السفهاء، واللقطاء، والأدعياء ومن كانوا للشياطين أبناء، ورفقاء! الله يقول الحق، وأعداؤه يقولون الباطل!

(47)

يقول تعالى ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ هذه آية من آيات الزمان الذي يُظلنا، نزلت في الوعد ببدر الكبرى. الآية تقول إن الله ينتقم من الذين طاردوا المؤمنين، وتقول إنه منتقِم من الذين صادروا أموال المؤمنين بعد إذ هجّروهم منها، واضطروهم للخروج، والهجرة، والبعاد. الآية تصرخ بغضبة الجليل سبحانه على الذين عذبوا المؤمنين، وأجْلوا المؤمنين من قراهم، وبيوتهم، وشتتوا شملهم، وحرموهم الأمان، ومنعوهم السلام، وضيقوا عليهم! الآية تعالن بتمدد الانتقام الإلهي، وتقرر وقوعه، وتفشّيه وانتشاره في أوساط الذين قهروا المؤمنين، وقمعوهم واستذلوهم، وأهانوا معتقداتهم، ومنعوهم حرية العبادة، وقصفوهم، واستأصلوا ألسنتهم، ومنعوهم حرية التعبير، وحرية الدين! ولأجل ذلك استعملت الآية "نبطش البطشة"؛ لتوسع من جغرافية الانتقام بدليل التفشي والانتشار الذي تخلقه الشين في الكلمتين، وبسبب الإطباق الموجود في الطاء في الكلمتين! الآية تقول إن بطشة الله تعالى بقريش المجرمة وقعت ومعهم الحليف الإقليمي الداعم! الآية تقول إن المؤمنين انتصروا في بدر، وأنذرتهم بطشة الله تعالى الكبرى على الرغم من رضى النظام العالمي القديم، ومباركته للدم المسلم المسفوك، ولتهجير المسلمين، ولحصار المسلمين! الآية تعلن أن

البطشة الكبرى، والهزيمة المروّعة المفاجئة نزلت بقريش وهم أكثر عددًا، وأعلى عتادًا، والمؤمنون مستضعفون، مهاجرون، والدعم الإقليمي مؤازر لعدوهم، والنظام العالمي يبارك وحشيتهم، ويسكت عن ظلمهم، وافتراهم، واستبدادهم! إن الذي أوقع البطشة الكبرى بقريش يوم بدر مازال هو الله مولانا، ومولى كل مستضعف، ومولى كل مطارد، ومولى كل مغدور!يا أهل الإيمان، الله قادر وبطشته الكبرى ما تزال ممكنة! الآية تورد الخبر

مؤكَّدًا حتى لا يتشكك أحد، والآية تورد التهديد بصيغة الجمع ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ تشديدًا، وتوكيدًا، وتغليظًا، وتخويفًا للذين عَذبوا، وطاردوا، وضيقوا، وأخرجوا المؤمنين!الانتقام في خزينة السماء، وهو واقع بكل قريش، في كل زمان! الانتقام في خزينة السماء ومفاتيح خزائن السماء في يد الله الجليل العادل الرحيم بالمؤمنين، الجبار على الظالمين الذين قتلوا، وسفكوا الدم، وطاردوا الخلق، وهجروا الناس، وآذوا أهل الطهر والبراءة والنقاء، وصادروا أموال الناس من الذين آمنوا! الانتقام باق في خزائن السماء!

(48)

يقول تعالى ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ هذه آية عجيبة جدًا، ومزلزلة جدًا، الآية تتجاوز اليقين في الانتصار للمستمسكين بالحق إلى مقامات طلب التمهل في استنزال العذاب بهم، الآية تقول إن الله يملي للظالمين كي يزدادوا إثمًا، وتقول إن الله يحصي لهم أنفاسهم في حياة الظلم، ويربي لهم حسابات الظلم، الآية ترطّب على قلب المرابطين، والسائرين في طريق النور، وتعلن أن عذاب الله الجبار واقع بالظالمين الذين تشوهت نفوسهم، الآية تبعث برسائل الصبر، وبرسائل النصر، يا أهل الحق اصبروا، ولا تتعجلوا ربكم، يا أهل الحق.. رابطوا واطمئنوا!

obeikandl.com

(49)

يقول تعالى ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَاهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ هذه آية يلزم استصحابها اليوم، ويلزم تأملها في اللحظة الراهنة. إنها آية تتذرع بالسؤال ولا تريده، وتتوجه إلى استثماره قاصدة الإنكار على من لا يرى هلاك المجرمين في كل زمان. الآية تلوذ بسوابق الفضل التي منّ الله بها على عباده المؤمنين في التاريخ الغابر، ويبعثه من مكامنه ليربط على قلوبهم، وينعش آمالهم في انكسار الظالمين. الآية تقول - بمنطق يسير - الذين أجرموا قديمًا نالهم نصيبهم من الهلاك، والذين أجرموا اليوم سينالهم النصيب الوافي من الهلاك في الدنيا، قبل العذاب في الآخرة، ذلك أن الذي أهلك المجرمين ممّن سبقوا في التاريخ هو القادر سبحانه، الحي سبحانه، العادل سبحانه، وكذلك فإن الذين أجرموا الآن وتنكروا للنعمة، والحرية، والطريق الإنسانية وقعوا في ما وقع فيه مجرمو الأمس، فحق أن تتنزل فيهم الآية من جديد! الآية تذكر أن الهلاك في خزائن السماء يتخايل، وهو عما قليل في هذه الدنيا نازل، ومحيط بمن فعل فعلة السابقين ممن أجرموا، وغدروا، وتنكروا للنعمة، وفرطوا في بشائر الخير التي كانت بدأت تلوح أماراتها! يا أهل الإيمان، تنبهوا؛ فالهلاك تلوح علاماته آخذة برقاب الظالمين والمجرمين ومن كفروا بالنعمة وظاهروا أهل الباطل ممن منُّوهم الأماني، وخدعوهم! يا أهل الله، اركنوا إلى الله!

(50)

يقول تعالى ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَا﴾ هذا جزء من آية جليلة كريمة محتاجة لفضل تأمل،هل كان النصر الذي تنزل على النبي الأكرم وقفًا على الهجرة؟ اللهم لا! إذًا، فتصور توقف الانتصار للنبي الكريم خلل من جهة العقل، ومن جهة الإيمان معًا! فإذا كان الأمر كذلك، وهو حق في بادي النظر، ومرجوعه ومنتهاه، صح أن نفهم أن انتصار الله تعالى للنبي الكريم قائم أبدًا، لا يخرمه تطاول الزمان، ولا ينال منه تكاثر اللئام! ومن عجيب أمر الآية أن تصوغ قرارها في صورة تركيب اسمي خالٍ من قرائن الزمان؛ لتجعل المعنى الذي يحمله التركيب باقيًا على الدوام، ويأتي فيه بضمير الفصل ليدفع توهم حمل ﴿ٱلۡعُلۡيَا﴾ على النعت، ويخلصه للخبر، وهو خبر من فئة التفضيل في درجته النهائية، لن ينتصر أحد يخاصم كلمة السماء، ولن يرتفع مقام أحد يعاند كلمة السماء! استمسكوا بكلمة السماء!

(51)

يقول تعالى ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هذه آية مدهشة كان ينبغي أن تستفتح باب علم جديد في العلاقات الدولية، قصرت في تأسيسه الحركة الإسلامية، وأهملت في استثماره في أزمنة التضييق عليها، ومحاصرتها. الآية تقرر الحاجة إلى اليقين في النجاة شريطة التخطيط واستشارة الحكماء في ماينبغي السير فيه من الطريق. الآية تقرر أن السبيل مرهونة بمقاومة تيار الخوف الذي جرف النفوس، وتدعو إلى تربية الأمة على مقاومة تيار الخوف في النفوس والضمائر بربطها بالرب الواحد الذي يملك مقادير العباد ويتصرف في الناس جميعًا، الآية تقول إن النجاة من الظالمين حتمية كونية، لكنها مرهونة بسرعة اتخاذ القرار الصحيح، في الاتجاه الصحيح، ومباغتة الخصم، واستثمار الجغرافيا الصديقة، وصناعة جيل متخصص في العلوم السياسية والتاريخية. هل أدرك من حملوا الأمانة أنهم فرطوا في هذه الصناعات الثقيلة فتلاعب بهم!.

(52)

يقول تعالى ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ ۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ هل تأمل أحد هذه الآية الجليلة؟! هل رأى فيها أحدٌ طريقًا للنجاة؟!هل استدعاها أحدٌ في حومة الصراع الواقع؟! الآية صريحة في أمرها بالاستمساك بحبل الله الذي هو الكتاب العزيز، والكتاب العزيز يقرر أن الطريق إلى النصر ماثل في استصحاب المنهج، وماثل في استصحاب التطبيق الأمثل للمنهج الذي قام عليه النبي الأكرم، وورثه صحابته الكرام النبلاء. الكتاب العزيز يعلن أن الطريق محكومة، وليست مظلمة، وأن مقاييس النهضة والنصر واضحة المعالم، تتخايل أمام الأنظار والأفهام، تقرر: أن الطريق المستقيم واحدة، وأن سبيل تطوير الذات مفتاحها الإقبال على الله بما شرع الله نفسه، وأن القرآن منهج ضامن، وأن السنة الواسعة برنامج تنفيذي مدهش، وأن اختبار المنهج نجح نجاحًا مذهلًا، ويكفي تأمل منتجه في قراءة ما كان مما ظهر في جيل الصحابة عليهم الرضوان! وأن الوحدة عاصمة، وأن التفرق مهلك، وأنه لا سبيل من دون تآخٍ حقيقي، ومن دون محبة حقيقية، إن ديننا دين محبة، وترابط قلوب، ولين جانب، وتحدر دمع عند اللقاء، وصفاء

نفوس لبعضها في الحل والترحال! كيف ذهل المعاصرون عن كل ذلك، وجرفتهم مناهج هي ضد إنسانيتهم؟! كيف انصرفوا عن مقامات الحب والإيمان، وسقطوا فريسة للشيطان الذي يطل برأسه من بيت الميراث التوراتي، والعلماني الذي خاصم وجه السماء؟!

obeikandl.com

(53)

يقول تعالى ﴿قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا﴾ هذه آية جليلة جدًا،وهي آية نزلت في قوم من مصر في زمان موسى عليه السلام، وهي آية نزلت في مقام الاعتذار الواهي الضعيف، وما أشبه الليلة بالبارحة! السامري ما زال يضل الجماهير، والسامري بنعومة خادعة زائفة يفتن القوم، فيسيرون خلفه، ويقذفون بثرواتهم في نيرانه، بعد أن أحكم الأكاذيب ليستميلهم، إن الآية جليلة جدًا؛ لأنها تعالن بأن السامري ليس رجل مرحلة بعينها، وإنما هو يولد في كل زمان، والآية جليلة لأنها تعالن بأن الجماهير التي سارت خلف السامري، فسقطت في وحل الضلال، وتمرغت في طين الفتنة ليسوا جماهير الزمان القديم، وإنما هم الجماهير التي تولد في كل زمان، والآية جليلة جدًا لأنها تقرر أن الثروات الحرام التي تملكتها الجماهير المضللة المفتونة التي يقذفونها في الحفر هي ذات الثروات التي يقذفونها في كل زمان في الحفر التي تحدد مع كل فاتن، ومع كل سامري! الآية جليلة جدًا، والآية فاضحة جدًا، والآية مرعبة جدًا، والآية مُطَمئنة، إن جلال الآية في انفتاحها الدلالي على الزمان، فموسى لم يزل بيننا يترجم عنه المستمسكون بالحق، والسامري لم يزل بيننا يوزع الفتنة، ويجمع من أيدي تابعيه الكثيرين ثرواتهم بمحض رضاهم، والحفرة التي تلتهم الثروات المجموعة ما تزال قائمة ماثلة!

المشهد الاعتذاري الذي هرول إليه القوم قديمًا ما زال قائمًا تتبدى علاماته كل يوم، وهو اعتذار من مرضى، منكسرين، مهزومين، أذلة، الآية تصنع تمايزًا عجيبًا بين الذين سقطوا، وبين الذين لم يسقطوا، الآية تحذر من مقام يضطر فيه الذين حُمّلوا أوزارًا وأثقالًا وذنوبًا من الزينة والسرقة والإضلال والفتنة إلى الاعتذار المهين!الله سبحانه لا يرضيه فعل السامري، والله سبحانه لا يرضيه فعل الجماهير الذين تابعوا السامري، والله سبحانه عادل لا يرضيه إلّا الحق ومتابعة الحق! يا أهل الحق اصبروا، فعمَّا قليل سينفضح السامري، ويندم الغوغاء الذين تابعوه، وسيأتون معتذرين اعتذار المهانين! الله قال، فصدِّقوه!

obeikandl.com

(54)

يقول تعالى ﴿فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾، هذه آية عجيبة، ربما فتحت الباب أمام فحص الاضطراب الذي يتفشى في الأنساق العلمية العربية التي باعت نفسها للشيطان، أو للمقاربات الغربية في علم النفس والاجتماع، وتنكرت للمصدر المركزي للأمة، وهو الكتاب العزيز، في تأسيس نظريات نفسية واجتماعية تفسر السلوك والاجتماع الإنساني على هدي من سننه، وآياته، الآية مع أخوات لها يمكن أن تُعَدّ مدخلًا تأسيسيًا لدراسة سيكولوجية الخوف في الاجتماع الإنساني، وتنزيل الآية على الواقع الراهن ربما يعين على فهم التشوهات السلوكية والاجتماعية التي أصابت قطاعات كبيرة من المصريين في هذه الحقبة المهزومة من عمر الزمان، الآية تقرر أن ارتفاع جدار الخوف يمنع من عمل العقل (كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ)، والآية تقرر أن هبوب عواصف الخوف تصيب الإنسان، غير المؤمن بقيومية الله تعالى، الذي لا ينبغي معه الخوف لدرجة الهلع، وانطماس مادة الاتزان، والسقوط في دوامة السقوط الحيواني الذي نرى ملامحه في الدلالة على الإنسان المخالف، والمشاركة في محوه، وتعذيبه، ومطاردته، الآية تقرر أن الخوف المريض يمسخ من يقع فيه، وتراه وقد فقد إنسانيته،

وتحول إلى مسخ شائه (رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ)، وهي صورة بشعة، تدلك على مبلغ الجنون، والذهول الذي يصيب الخائفين، وهذا النفر من الخلق المخلوع، الخائف، الممسوس، المغشي عليه من الخوف هو هو الذي يستأسد على أهل الإيمان عندما تذهب غاشية الخوف، وتنقشع عواصفه، هذا النفر يعود شحيحًا، حادّ اللسان، قاسيًا، فظًّا، متعالمًا، إن الذين تصدوا لحكم الجماهير ممن زعموا وصلًا بفقه الإسلام، لم يكونوا فقهاء، ولم يحفظوا الأمانات، فتقدموا نحو سياسة الجماهير بغير فحص قوانين الاجتماع الإنساني في الكتاب العزيز، لم يدرسوا سيكولوجية الخوف لدى من تقدموا لحكمهم، فانقلبوا عليهم عندما جاء من أرعبهم، إن القدوم على الشيء بلا علم خيانة للأمانة.

obeikandl.com

(55)

يقول تعالى ﴿ يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴾ نزل الكتاب العزيز للحياة، ونزل الكتاب العزيز للتزكية والعمران، وهو الذي يفسر العناية الجليلة التي يوليها لمنزلة الأخلاق في الحياة، ولتعايش الأجيال، وللمسئوليات المتبادلة، في هذه الآية الكريمة نموذج لمسئوليات الآباء نحو الأبناء؛ ذلك أن مخزون الخبرة، وفطرية المحبة يفرضان على الآباء أن ينيروا الطريق، ويمنحوا معرفتهم بالطريق للأبناء، الآية تشير إن أعظم الكنوز التي ينبغي أن يمنحها الآباء للأبناء هي المعرفة، والمعرفة الممنوحة في الآيات تتوزع على القوائم التالية:

أولا: التقرب من الرب بأحب ما افترض على العبد (إقامة الصلاة).

ثانيًا: الإيجابية في الحياة(وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر).

ثالثًا: الجد في طلب الحياة، والرجولة والتحمل (واصبر على ما أصابك).

رابعًا: التواضع العملي (ولا تمش في الأرض مرحًا).

إن الله يأمرنا، ويأمر الأجيال التالية بشيء فوق التعايش، بالبذل، والمنح، والاستجابة للخير، والآية جزء من منهج أصيل لا يرى الركون لصراع الأجيال، ويرسي دعائم لألفة الأجيال، القائمة على بذل الكبار، واستجابة الصغار، أولادنا مصدر للفرح والبهجة، فليكن فرحًا ساكنًا وبهجة آمنة.

(56)

يقول تعالى ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ هذه آية قانون من قوانين الله تعالى المبثوثة في الوجود الإنساني، ومن المهم جدًا استصحاب سياقها المطيف بها، لقد جاءت الآية تعقيبًا على كلام المؤمنين الذين ساروا مع طالوت لمواجهة المستبد الغاشم جالوت بأنهم لا طاقة لهم اليوم بجالوت وجنوده، وجالوت يومئذ مستيد، قاتل، جمع المؤسسة العسكرية الباطشة في يده، وجنوده أراذل لا أخلاق لهم، ملكهم بالفجور، والمال، والسلطة المريضة، فكان أن قرر الله تعالى هذا القانون الدائم، كان جيش طالوت مؤمنًا، به من المهارات، وبه من الأفراد النبلاء من أشار الله إليهم، فيهم داود، لقد تقدم النفر القليل، مستصحبين ما يلي:

أولا: الإيمان بالله تعالى.

ثانيًا: تمكين الشباب.

ثالثًا: الصبر.

رابعًا: التضحية.

فكانت النتيجة المذهلة (فهزموهم بإذن الله).

إن الهزيمة التي لحقت جالوت متوافرة في السماء، ينزلها الله على كل مستبد، فاجر، ولو كانت جيوشه ملء الأرض، ولو كان عتاده من أقوى الترسانات؛ لأن إذن الله بهزيمة أي مستبد لا يمنع منه شيء.

obeikandl.com

(57)

يقول تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هذه آية جليلة، وهي من مفاتيح إعادة النظر إلى الكتاب العزيز من زاوية استراتيجية، وتفتح الباب أمام ضرورة قراءة الذكر الحكيم، ونحن ندرس شخصيتنا القومية؛ لتكون عونًا على تقدير العدو من الصديق، الآية تؤكد الفعل لترقى به إلى مرتبة حقائق التاريخ اليقينية، ثم هي تستعمل في الإخبار عن عداوة اليهود صيغة صرفية للتفضيل والزيادة المطلقة، متبوعة بتمييز يعين مجال الشدة المتعالية المعلنة، والآية توضح وجهة عداوة اليهود الشديدة بعبارة حاسمة دالة على غاية هذه العداوة بقرينة اللام، ووجهة العداوة هم المؤمنون، والآية عبّرت عنهم بالاسم الموصول المتبوع بجملة الصلة، وهو ما يعني استمرار العداوة لجنس المؤمنين على الدوام، ولو أن القرآن أراد الدلالة على أن الحكم مؤقت لعبَّر باسم الفاعل الدال على الانتقال والتوقيت، ثم إن الآية قدَّمت اليهود على الذين أشركوا، لإفادة ارتفاع رتبتهم في العداوة، صحيح أن الواو العاطفة لا تفيد ترتيبًا في منطق اللسان، ولكنها في منطق القرآن تفيد الترتيب، وقد صحَّ عن النبي ﷺ، أنها تفيد ذلك، الكتاب العزيز يعلن شراسة عداوة اليهود، وعنادهم، وحسدهم، وجحودهم، ومكرهم، وتخطيطهم لمحو المؤمنين، والكتاب العزيز صريح في بيان موقفهم، ولقد استمرت الأمة على هذا المنهج، تحفظ عن ربها، وتربي أجيالها على هذه الحقيقة الواضحة.

(58)

يقول تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِي ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ هذه آية عظيمة معجزة، تبالغ في الحط من منازل أولئك الذين تشوهت نفوسهم فسعوا في إسكات صوت الله تعالى عن بيوته ومساجده، الآية تقول إنه لا أحد أظلم من هؤلاء الذين يضيقون بمصانع التزكية، وبناء الضمائر الحية ممّن يضيّقون على العباد، ويسعون إلى إغلاق منافذ الهداية، الآية تقرر أن التضييق على المساجد، وإحراج روادها سعي في سبيل خرابها؛ لأن الله سبق منه أن جعل أفضل عمارة لها هو ارتياد العباد لأفنيتها، واصطفافهم في صفوفها، وارتفاع الأصوات بالقراءة والتكبير في أروقتها، الآية صادمة جدًا في الحكم المزلزل الذي تعلنه، وفي درجة الظلم المتعالية التي تقررها في حق المخربين والمضيقين على بيوت الله تعالى الذين يستفزهم صوت الإيمان، إن التاريخ يقول إن كفار قريش هم أول من ابتكر الصد عن المسجد، واتخذوا القرارات الحكومية من أجل أن يُسكتوا صوت القرآن فيه، وشغبوا على القراء وآذوهم، وأحرجوهم، ومنعوهم، وألزموهم الصلاة في البيوت بحجة أن نفرًا من قريش يتأذون من رفع الصوت بالتلاوة، ثم إن الآية تقول إن أولئك

الذين يسعون في إسكات صوت المسجد لهم الخزي والهوان والمذلة والانكسار في الدنيا، ثم هم في الآخرة من أهل العذاب، والنار.

المسجد بيت الله تعالى، وهو مانعه، وحاميه، ولن يكون من أحد إلا ما يشاء الله في كونه، فيا أهل الأرض لا تمنعوا صوت السماء، ولا تصدّوا عن سبيل الله، ولا تسعَوا في خراب بيوت الله.

obeikandl.com

(59)

يقول تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ هذه آية جامعة هادية، الآية تستبقي الإيمان تشجيعًا، وحفزًا للهمم على تجنب الموبقات الأخلاقية التي تنهى عنها، الآية تأمر باجتناب الظن، وترتب عليه حصد الإثم، وتسعى إلى الضمير الحي، والمصداقية المنجية، وشفافية الصدور، والآية تنهى عن التجسس، وتتبع الناس، وحفظ حرمات البيوت، وخصوصيات الخلق، وتمهد الطريق لاستقامة المجتمع، وسد المنافذ على المتلصصين، والعيون، ومشوهي الضمير، وبائعي آذانهم للشياطين من أنظمة الاستبداد والفساد، والآية تحرم الغيبة، وتديم تحريمها، بقرينة الفعل المضارع المنهي عنه (لا يغتب) كما تقرر برامج البلاغة القرآنية، تصريحًا، ظاهرًا، غير مُحْوِج لاستصحاب السياقات، والاغتياب ذكر الرجلِ الرجلَ بما يكرهه وإن كان فيه، وهي أقل صورة ممكنة من الأذى، وهو نهي عن الأدنى استصحابًا لما فوقه من صور الأذى كالبهتان، وهو ذكر الرجلِ الرجلَ بما ليس فيه، لقد شاع في هذا الزمان نوع جديد من الغيبة استطال فيه نفر بسلطة مكانهم، فأسقطوا مكاناتهم، وأزروا بأنفسهم، ولقد شاع في هذا الزمان نوع افتراء، وبهتان تجاوز أذى اللسان إلى ما هو فوقه وزيادة، والآية تقرر أن المتورطين في ذلك والِغون في اللحوم الجيف، واللحوم الميتة، في صورة بشعة

منفرة، تسقط بفاعليها، وتحشرهم في سلك الحيوانات المفترسة التي تتغذى على الجيف المنتنة، ومع كل الذي مرّ في الآية الجليلة فإن الله تعالى يفتح بابًا للعودة والأوبة والتوبة من هذه الجرائم الأخلاقية ساعة يأمر بتقواه، ويذكّر بأنه هو التواب الرحيم لمن أطاعه، وكف عن الخلق أذاه.

obeikandl.com

(60)

يقول تعالى ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ﴾ هذه آية جليلة جدًا، ولعل بعض جلالها أنها تعيد الاعتبار للدرس التاريخي في الثقافة العربية المعاصرة، الآية تقر قانونًا جديدًا يجب على الباحثين في علم التاريخ اعتباره، وتقديره، والالتفاف حوله، وهو الانطلاق من محورية القيم الأخلاقية، ومحورية البعد الإيماني، ومحورية إعادة الاعتبار للإنسان في تقييم الأحداث التاريخية، كان فرعون حاكمًا قويًا بسط نفوذه المادي عسكريًا واقتصاديًا وحضاريًا، بمشاركة فاعلة وقوية من وزير التشييد والبناء في نظامه، وبمجهود متميز من جيشه وجنوده، وحقق هذا النظام بأذرعه الثلاثة على مستوى السياسة والحكم، ثم على مستوى التمدد العسكري، ثم على مستوى الاقتصاد، والازدهار العمراني في بناء المدن، وتنظيم الطرق، وتوسيعها، وبناء الجسور، وتنظيم الزراعة، والري، وإدارة الشونة على ما يقرره علماء المصريات - تقدمًا ملموسًا، ولكن القرآن فاجأ الجميع ووصف منجزه بقوله (كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ) وهو ما يفتح الباب وسيعًا جدّا أمام ضرورة إعادة تقييم الأنظمة الحاكمة وفق معايير جديدة تقدم مباديء الإيمان والعدل والحرية والانسجام الإنساني، وتقدِّر قيم الإيمان الحقيقية على اعتبارات إقامة المدن، أو بناء عاصمة جديدة للدولة، وتشييد المساكن،

وشق الطرق، وتوسيعها، وإعادة تنظيم المرور مع أهمية كل ذلك من المنظور الحضاري بطبيعة الحال، كان فرعون وهامان وجنودهما خاطئين لأنهم خنقوا الحريات، واستهانوا بكرامة الإنسان، وأذلوا السكان، كان فرعون وهامان وجنودهما خاطئين لأنهم اغتالوا العمل الأهلي، وأخَّروا رتبة المجتمع المدني، وعسكروا البلاد، وهيمنوا على مشاريع البناء والتشييد في ما يبدو، كان فرعون وهامان وجنودهما خاطئين لأنهم خانوا مواريث السماء، واستهانوا بقيم الإيمان، وتورَّطوا في الآثام، واستذلوا المواطنين، كانوا خاطئين مع علوهم المادي، الآية مرعبة جدًا.

obeikandl.com

(61)

يقول تعالى ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى﴾.

هذا موضع عزيز من الكتاب العزيز، محوِج إلى فضل تأمل، ومراجعة فاحصة في زمان صعب، يلوك في الإخوة من المؤمنين لحوم بعض، ويستأسدون على بعض.

سافر موسى لبعض شأن دعوته، فكان في الخارج، واستوزر أخاه، النبي مكانه، ووصاه، وحمّله أمانة الفئة المؤمنة، وأمره بحفظ جماعة المؤمنين، ووحدتهم، وفهم الوصي الوصاة، وضل فريق من الجمع، واحتجوا بإمامة موسى، وهو يومئذ في الخارج، وهضم هارون النبي حق نفسه، والتزم وصاة أخيه عالي القدر والمنزلة، والمقدّم في الإمامة والنبوة، والعلم، وارتقى إلى الأولويات، وقدر، ونعم ما قدر، أن الوحدة، والتئام الصف، وتماسك الأمة، أمور مقدمة، مقدرة، معتبرة، يهون في سبيلها أشياءُ كثيرة، من مزاعم القيادة، كان هارون رجلًا نبيلًا، حفظ العهد، ورعى حقوق الأخوة، ولم يقل إنني قائد المرحلة، أو الوضع، مع صعوبة التواصل مع القيادة الأصلية، لقد سكت هارون على شيء من الانحراف العقدي،

ولملم شمل الأمة، ولمّا شرح حجته لأخيه بَدا من موسى عليه السلام ما يشبه الاقتناع والرضى بصنيع أخيه، وتوجها معًا لمجاهدة الضلال والثورة عليه، وواجها السامري، فيا أيها القوم تعلموا من هارون، ويا أيها القوم اتحدوا في مواجهة السامري!

obeikandl.com

(62)

يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴾.

هذه الآية رهيبة جدًا، تثير الرعب في نفوس الذين يحسنون استقبال التاريخ.

الآية تقرر وتؤكد أن الله تعالى سبق منه الانتقام من أئمة الاستعلاء والاستكبار والإجرام في الأرض، كان فرعون وحكومته يتيهون باقتصادهم، وعلوهم في مشروعات البناء والتشييد، وكان فرعون وحكومته يترصدون المخالفين فيقتلونهم، ويستأصلونهم، ويترصدون النبتة الصغيرة في ملاحقة أجيال الأطفال، لكن الله تعالى هزمهم، وأسقطهم بما ظنوا أنهم لن يهزموا من قبله، هزمتهم الشدة، والضوائق الاقتصادية، وغلاء الأسعار، وانعدام الأمطار، وتراجع الميزانيات، هزمهم بتراجع القوة، وبنقص الأموال، وهزمهم بنقص الأنفس بموت الذين اصطفوا معه، وساندوه، وأيدوه، وحرّضوا على المؤمنين من بني إسرائيل، وأبلغوا عن الأطفال الصغار، ودلّوا عليهم أجهزة السلطان، الله يؤكد قدرته بقرينة الفعل الماضي (أَخَذْنَآ)، ويؤكد عظمة انتقامه، والاجتماع له، بقرينك الضمير العظيم (نا)، إن الله الذي انتقم من فرعون وحكومته ومن شايعه، واصطف إلى جانبه هو الله الذي يرى مظالم هذا العالم، والاستعلاء البغيض من الظالمين، والاستكبار. المريض من المجرمين، الله هناك هو الله هنا!

(63)

يقول تعالى ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾، هذه آية عجيبة جدًا، ولكن الناس يعزلونها، إذ يحصرونها في نطاق الأخلاق الشخصية، الآية قاعدة حكيمة ضابطة للشأن الاجتماعي كله، والشأن السياسي كله، والشأن العام جميعًا.

لقد تطورت برامج الخديعة، والتزييف، والتزوير، وتغلغلت في مسارب الحياة الاجتماعية والسياسية والتعليمية جميعًا، ولكن الآية وهي توجه الأخلاق الخاصة طلبًا لتزكية النفس لا تعزل الأمر عن الشأن الاجتماعي، إذ الحادثة وقعت في محيط العلاقات الاجتماعية، ولا عن الشأن السياسي؛ لأن المتهمة الرئيسية زوج زعيم سياسي مرموق جدًا، يعتلي سدة الحكم في زمانه، ولا عن الشأن العام؛ لأن المتهمة من رموز الحياة العامة في الزمان الذي تحكي عنه الآية؛ ولذلك صح من جانبنا أن نقرر أن الآية قاعدة جليلة جدًا في بعث الأمان القلبي والعقلي في النفوس المؤمنة بأن الله تعالى مبطل تآمر الخائنين، والغادرين، في الاجتماع والسياسة والتربية جميعًا، الله يعد بهزيمة الغدر، وبهزيمة الخيانة، والوعد منه قائم، متجدد، واسألوا الفعل المضارع ناطق بدلالة زمان الاستمرار.

الخيانة هزيمة كلها،

الخيانة عار كلها،

الخيانة خراب كلها،

والله لا يعجز عن تنفيذ وعوده!

(64)

يقول تعالى ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾، هذه آية عجيبة جدًا، ولا أدري كيف يذهل عن مضمونها الحضاري كثير من الخلق.

الآية تباهي بنبيّين كريمين، أحدهما من أولي العزم من الرسل، وآخرهما جد نبيِّنا ﷺ، ومادة المباهاة هي أنهما كانا يعملان في البناء والتشييد، الآية تعلن أن إبراهيم كان بنّاءً، وأن ابنه الذبيح كان مساعد بناء، أو مناوِلًا بلغة الصناع المصريين، الآية أعلت من مهنة البناء، وأعلت من مهنة مساعد البناء، وأسندت الفعل الجليل إلى إبراهيم وإسماعيل، وجعلت البناء طريقًا للرفعة، رفعة الحضارة من طريق التشييد، والعمارة، ورفعة المقام من طريق أن يكون الإنسان نافعًا في الحياة، يبني ما يأوي الإنسان ويحميه، وينظف الطرقات، ويرقى بالإيمان والسلوك والحياة، والعجيب أن النبيين الكريمين ابتهلا إلى الله تعالى أن يتقبل منهما العمل، وأن يكافئهما عليه، وهو بناء، ومناولة أحجار، وملاط، وتعب بدني، نزلت الآية وأخواتها في الكتاب العزيز فاعتبرت كل عمل بمقاصده، فالبناء والتشييد من عمل الأنبياء كان طريقًا لعمارة الكون، وعبادة الرب، وتنزيهه في الأرض، وارتقاءً للروح، وتجميلًا للحياة، ومَجْلًى للاختراع، وتذليلًا

للموارد، وحاميًا للبدن الإنساني، وأمرًا بالنظافة الخاصة والعامة، وجعلهما طريقًا لتحصيل الإيمان، وترقية الوجود الحي، وحماية الحضارة، ومحاربة الأوبئة، وصناعة جودة الحياة، ووعد الرب على من يمارسها ويعمل في مجالاتها بالأجر الجزيل.

إن الآية كاشفة عن انحراف مروّع عن عطاءات النطاق المركزي لحضارة القرآن، يا أهل التربية، يا سدنة المقررات التعليمية، يا صناع الإعلام إن ما كان مما نجد من الانحراف مرجعُه إلى تغييب حقائق القرآن، احتفلوا بإبراهيم بنّاءً عابدًا، وبإسماعيل مناولًا عابدًا، وبكل الكرام الذين عملوا من أجل حضارة الإنسان!

obeikandl.com

(65)

يقول تعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾

هذه آيات جليلة جدًا، تفتح الباب واسعًا أمام فحص هذا العضو العجيب الذي به تكون الإنسانية طاهرة راقية متعالية، ألا وهو القلب، الآية تتكلم عن طاقة تغييرية عجيبة يمكن للقلب أن يحصّلها، ويحدث له اللين، والرقة، والامتلاء بالعطف والشفقة، الآيات تتكلم عن نوع من النصوص التي تملك صنع اللين في القلوب، وهو مدخل رائع لفحص الأثر النفسي للكتاب العزيز، الذي وصف نفسه بأحسن الحديث.

الكتاب العزيز يفتح الباب للعلاج بالأدب الراقي، ويفتح الأفق على تحقيق الترقي الإنساني من بوابة ترقي القلوب، الآيات تتكلم عن تأثير مادي وكيميائي للكلام الحسن، وهو الأمر الظاهر في تليين الجلود، وتليين القلوب.

الكتاب العزيز نموذج فريد نحو لين القلوب، وامتلائها بالعفو، والمحبة، والآداب المتأثرة بمقاصد الكتاب العزيز الجمالية والمضمونية طريق للقلوب الطاهر، وطريق للقلوب المتآلفة، وطريق لاحتفاف القلوب بالنور، والضياء.

افتحوا قلوبكم للنور، واعمروها بالرقة.

يا كل المكلومين،

ويا كل المحرومين،

ويا كل المظلومين،

ويا كل الملتاعين، املأوا قلوبكم بالحب،

ولينوا لكل الذين يمدونكم بالسعادة،

لينوا لكل الذين طالما أمتعوكم ولو للحظة واحدة،

قدّروا من يمنحونكم إنسانيتكم،

يا كل أهل الفضل علي، ويا كل من ملأتم قلبي باللين.. شكرا لك.

obeikandl.com

(66)

يقول تعالى ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾

إن الآية الجليلة تفتح آفاقًا جديدة للانتصار للتصور الذي تنزّل به الكتاب العزيز، الآية تقدر المرأة، وتقدر الطفل وتحتفي بهما، وتدعو إلى حمايتهما، ربما لأنهما رمزان على الضعف الإنساني، وربما لأنهما أعلى مصدرين للبهجة الإنسانية، وربما لأنهما مصدران للبقاء، بسبب من خصوبة المرأة، وهي الضامن لبقاء الإنسانية واستمرارها، وللبراءة والأمل في المستقبل، إذ الطفولة أعلى مخازن البراءة الممكنة، والفرحة الممكنة.

الآية تدعو إلى العناية بتثقيف المرأة وتثقيف الطفولة، الآية تقرر حمايتهما من مناطق الخطر والصراعات، والنار، (امكثوا)

الآية تضمن السعي لضمان المعرفة لهما (لعلي آتيكم بخبر)

الآية تقرر أن السعي على رفاهة هاتين المنطقتين مروءة وتمام رجولة (أو جذوة من النار لعلكم تصطلون)

القرآن قادر على أن يتقدم ليملأ فراغات العالم،

وقادر على أن يحارب التوحش!

(67)

يقول تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴾.

هذه آية عجيبة جدًّا، ومطمئنة للمؤمنين جدًا، ومزلزلة للظالمين جدًا،

الآية نهي ظاهر من (لا الناهية) وهذا موضع عجيب في النهي عن الإدراكات المريضة، ونهي عن المعرفة المريضة، ونهي عن بناء المفاهيم المريضة، ونهي عن التصورات المريضة، ونهي عن الإجراءات البحثية المخادعة، ونهي عن الاستجابة لغواية الإحصاءات الموجهة، ونهي عن اتباع المظاهر الخادعة وتحكيمها في الاستنتاج، واستخراج الأحكام.

ثم إن الآية الجليلة نص في بعث الأمل في النفوس، وفي تخليق الاطمئنان في الأفئدة، وفي زرع البهجة الساكنة الآمنة، الآية تعالن أن الله لا يغفل اليوم، ولا يغفل غدًا، ولا يغفل على امتداد الزمان، الآية تقرر مراقبة الجبار للظالمين، ورصده للظالمين، وعدّ أنفاس الظالمين، وتسجيل أصوات الظالمين، وإحصاء خطرات الظالمين، الآية الجليلة لا تنفي الانتقام الدنيوي من الظالمين، ولكنها تقرر منهجًا بديعًا في الأمان المريح عندما ترد المؤمنين إلى نهاية المطاف في الآخرة، وتردهم إلى نوع مقارنة لا تصمد فيه الدنيا، ولا يصمد فيه تسلط الظالمين، ولا يصمد فيه غرور

الظالمين، ولا بطشهم أمام قهر الله وجبروت الله وبطش الله، في الآخرة.

لقد كان العماد الأصفاني كاتب صلاح الدين الأيوبي عبقريًا عندما اقتبس قطعة من الآية الجليلة في سياق التهوين من غرور الظالمين الصليبيين وأنصارهم،

الله يقول،

الله يفتح آفاق الأمل.

obeikandl.com

(68)

يقول تعالى ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ هذه آية كأنما تتنزل اليوم، وهذا حكم يدعمه التنادي إلى نوعٍ معلن من الجاهلية، يتزعمه نفر من الناس غفلوا عن فارق ما بين الجاهلية التي يدعون الناس إليها، والإسلام الذي جاء فحرر الخلق من الجاهليات، أو أراد، الآية نهي ظاهر للنساء المؤمنات بدليل قرينة السابق على ما يقرره أهل النظر في السياق، إذ ماقبلها خطاب لأجلّ النساء، وهن نساء النبي ﷺ، أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، ومن معهن من أطهر الأجيال، الصحابيات، والآية نص في ضرورة العناية بثقافة القوم الجاهليين، حتى يمكننا فهم الآية الجليلة، ولأجل ذلك حفظ علماء الإسلام الأوائل هذا التراث على مافيه فقهًا، وفهمًا، وسبيلًا لفهم الكتاب العزيز، ولم يبلغنا عنهم أن حرقوا هذا التراث على وثنيته، أو مجونه، ولا بلغنا أنهم دعوا إلى حرقه، الجاهلية الأولى نوع ثقافة نالت منها الآية الكريمة، والله تعالى يدعونا ألا نتورط في ممارسات الجاهلية الأولى، والذين يراجعون أدبيات تاريخ العرب في الجاهلية يعرفون أن النساء كن يزاحمن الرجال مزاحمة بغيضة غير أخلاقية، وكن يطفن بالبيت الحرام عرايا إلا من بعض شيء تافهٍ لا يستر العورات، ويتباهين بذلك، ويتكسرن في كلامهن، ويتغنجن لمن لا يعرفن، ويشعن الفحشاء باسم

الفن، والجمال، القرآن يمنع من استعادة الجاهلية الأولى، وهو بهذا يعلن أن الجاهلية نمط ثقافة لا حقبة زمان، الآية تدمغ الدعوات الراهنة التي تريد أن تردنا بعنف إلى ثقافة الجاهلية الأولى، وتستثمر المرأة سبيلًا إلى ذلك.

إن هذه الدعوات عنصرية ضد النساء، وتشييء لهن، وعرضهن سلعة، وتحويلهن لوقود معركة ضد الدين، الله يريد الطهر للمرأة، ويريد لها ألا تتحول إلى شيء، أو سلعة، يريدها إنسانًا موفور الكرامة، ثم هو يريد للعالم ألا يعاند حقائق الدين، وأن يسير في اتجاه الطهر، والتزكية، وانسجام النفوس، لاتبرجن: نهي إلهي والجاهلية الأولى ثقافة يراد لها أن تهيمن من جديد!

obeikandl.com

(69)

يقول تعالى ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾

هذه آية جليلة جدًا، وبعض جلالها نابع من جلال ما تحتويه من دلالة، الآية عنوان حضارة جديدة، أوجدت من عدم، وصح معها وصف الحضارة التي أسسها الكتاب العزيز بأنها حضارة الكتاب بامتياز، والآية منبع للتقدم، وطريق للتمدن.

لقد كان من تجليات الآية الكريمة في بعض التطبيقات النبوية أن سوّت بين الحياة والقراءة، لقد قرر النبي ﷺ افتداء المحاربين من المشركين المأسورين في بدر بطريق تمكين صبيان المسلمين من القراءة، فكان التجلي العظيم الذي سوّى بين نحاتهم وبين القراءة، وصار فعل القراءة رمزًا للنجاة، وصارت صناعة الكتاب في الحضارة التي أعلاها القرآن رمزًا للحياة.

إن الأمة التي تهين الكتاب وتزدريه أمة تهلك وجودها المادي المتعين، وهي أمة تهين الأمر الإلهي وتزدريه، إن الأمة التي تتجاوز في حق القراءة وفي حق الكتاب أمة تهين القرآن، وتدعو إلى الإزراء به، لأنه أعظم رمز على الرب الذي خلق!

الكتاب حياة

الكتاب نجاة

الكتاب إشارة إلى الله!

(70)

يقول تعالى ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

هذه آية عجيبة حقًا، عجيبة في تركيبها، وعجيبة في الحقيقة التي تعلنها، وعجيبة في الروح التي تبثها في النفوس، وعجيبة في نهيها عن هذين الفعلين المحبِطَين: الهوان والأحزان!

لقد كنت أتسامع أن العجز خيانة، وأن الضعف محظور، وأن ترك الطريق لهزة عارضة غير إنساني فأعجب من فقه الذين يعلنون ذلك، وها هو ذا الكتاب العزيز يدعم ما قالوا، ويعلي مما قالوا.

الآية تمنع من الوهن، وتمنع من الضعف، وتنهى عن العجز، وتنهى عن تنكب الطريق المستقيم لشيء قاسٍ عارض، والآية تمنع من الأحزان، وتنهى عن الانكسار، وتمنع من الهزيمة النفسية، وتنهى عن البكاء الذي يسقط بالهمم، وينال من العزائم التي كانت صلبة، وتدعو النفوس إلى التماسك، والاستعلاء على الآلام، مهما كانت، لقد مرّ بي في حياتي لحظات أشرفت فيها على فقد أحب الخلق، وتملكني شعور جارف بالهزيمة، وغمرني بكاء الانكسار، ثم كان الصوت القوي العجيب الذي يدفعني نحو القوة، ويعيد تذكيري بأن النفوس الكبار لا تقبل بالهزيمة النفسية، ولا تستجيب لدواعي الإحباط، والضعف، والعجز، والحزن،

والتراجع، كان صوت نفسي يقول عند الشعور بالخطر: لا تبكِ، فكل أحد صغير بجوارك، كان الصوت حاسمًا، ومنيرًا، وحنونًا، وموصولًا بالآية الجليلة من حيث أدرك أبعادها بفطرة عجيبة، إن الأمة التي تحسن تدرك نفسها، وتدرك رسالتها لا تنكسر، وإن أفراد الأمة الذين يحسنون يحبون، ويحسنون يتمسكون بشخصيتهم، ويحسنون يكتشفون ملامحهم الذاتية الحقيقية لا يهنون أبدًا، وها أنا أعالن بأنني أدرك سر نفسي، وسر هويتي، وسر هذه الحضارة العجيبة، وسر الإنسانية المتدفقة في نفوس الذين منحونا معنى الحياة من جديد، ولذا فإنني سأطارد في روحي وعقلي أي بقية لهزيمة نفسية، وأية بقية لمعنى الوهن، أو الحزن، أو فقدان الثقة،

لقد أضاءت الطريق، وسيظل الطريق مضيئًا مادامت باقية!

obeikandl.com

(71)

يقول تعالى ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ ﴾.

هذه آية جليلة مزلزلة، أما جلالها فمن كونها باقية على الزمان، مستمرة مع تكرر الشأن، وأما زلزالها فلأنها في أهل مصر في زمان يشبه الزمان، استكبارًا في الأرض، وانتشارًا للإجرام، وشيوعًا للفساد والهوان، الآية تقرر أن الله تعالى يعاقب بالماء، فيكون موتًا ذريعًا، وتدميرًا مريعًا، وتقرر مرة أخرى عندما تلوث الماء وصار دمًا، وملأته الجراثيم، وسكنته الأوبئة، الآية تقرر أن الله تعالى يسلط الجراد والقمل والضفادع، وهي أمثلة غير حصرية لما يطيع الله تعالى من خلقه يوم يشاء تسليطها على من يعصاه من خلقه.

هل يشعر العقلاء اليوم أن أجيال المصريين في كثير من شرائحها وفئاتها وطبقاتها تقترب من هذا المصير المؤلم؟!

وهل يشعر العقلاء اليوم أن كثيرًا من الأوضاع تدفعنا إلى هذا المصير المشئوم؟!

وهل يشعر العقلاء اليوم أن كثيرًا من صور معاندة الله تعالى، والجرأة عليه فاشية في الناس توشك أن تعمهم بالعذاب الرهيب؟!

إنني أستشعر هجومًا خسيسًا على الله تعالى في كثير من المناطق المصرية، واستشعر أن الله تعالى ينذرنا بهذه الآية التي نزلت في أجيال مرت على هذه الأرض، واستعملت النيل في حربه سبحانه، فعوقبوا به، وتاهوا على الرب بالنعم التي أخرجها لهم فدمرهم بها، النيل يحمل الموت الذريع للعصاة، والأرزاق من المطعومات تحمل الموت الذريع للمعاندين المارقين، والبيوت والمساكن تستحيل مواد عذاب لا تطاق للمجرمين، الذين يستكبرون، ويبطشون، ويتشوهون.

اللهم إنني أبرأ إليك من فساد الفاسدين، وإجرام المجرمين، واستكبار المستكبرين!

obeikandl.com

(72)

يقول تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾

هذه آية جليلة جدًا، وجلالها ظاهر جدًا، الآية من آيات الأحكام التي تفرض على الإنسان، جنس الإنسان أن يستفرغ الوسع في إكرام الأم، والمبالغة في الإكرام، وهذه المبالغة ظاهرة من عدة أمور، هي:

- استعمال (إحسانًا) في هذا الموقع النحوي العجيب، حيث وقعت مفعولًا مطلقًا لفعل محذوف، وهو ما جعل الأمر في «وصينا» للتوكيد، من جانب، وأسكنه بدلالة الأمر مرة أخرى؛ لأن المفعول المطلق محذوف العامل يدل على الأمر.

- استعمال الإحسان، وهو مصدر، والمصدر هو المادة الخام من المعنى، إذ هو الحدث المجرد من أية علائق زمانية

- وهو نكرة؛ لاستغراق الأنواع جميعًا

- وهو الإتقان البالغ من الوجهة المعجمية.

ومن عجيب تركيب الآية استعمال الإخبار لوظيفة التعليل للأمر بالإحسان إليها، وهو ماظهر من الإخبار عما تحملته من عذابات الحمل،

والكره الذي رأته، والكره: وهن شديد، وكلفة ومشقة مريرة، وهو الكره الذي يستمر في الحمل ويستمر في الرضاعة.

إن الآية أشارت إلى صنوف من الكره، وسكتت عن صنوف من المتاعب، والمكاره التي تتحملها في سبيل حياة ولدها، سعيدة، وإن كانت واهنة، محبة، وإن كانت متألمة، ومن أجل ذلك قرر القرآن وجوب برها، والإحسان إليها، والارتماء تحت قدميها، والتماس الجنة هناك عندها.

اللهم أكرم أمهاتنا، وارض عنهن.

obeikandl.com

(73)

يقول تعالى ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾

هذه آية جليلة جدًا، في زمان عجيب يغفل الناس فيه عن معنى الحب النبيل، وفي زمان تشوهت فيه الإنسانية وسعت للتجويع والتعذيب، والإفقار!

الآية تمتدح فريقًا نبيلًا مؤمنًا من الخلق برصد حرصهم على حياة الخلق، بما يبذلونه من إطعام الطعام لكل مناطق الضعف الإنساني مشمولًا هذا البذل باستصحاب محبة الله تعالى، الآية تحمل أمرًا للذين يتوقون أن يكونوا من جملة المؤمنين الأتقياء أن يطعموا الطعام لكل المحتاجين، المنكسرين، المأسورين، المسجونين، ولو كان أسرهم وسجنهم لسابق عداوة، أو محاربة.

إن الله تعالى يربط كما يلوح في هذه الآية الجليلة بين الإيمان والعطاء المحيي للبشر، ويجعل مقياس حفظ البشرية من طريق الإطعام بابًا للخيرية، والإيمان، الآية تنعي بشرًا فقدوا إنسانيتهم، وجوّعوا الخلق، وتنعي أنظمة لم تراقب الأسواق فصَعُب الطعام على الناس، الآية تَصِمُ أممًا أزهقت نفوسًا من بني آدم فيها جوعًا، والآية تدمغ دولًا قطعت أرزاقًا، وشردت نفوسًا، الآية تعلمنا أن الذين يحتكرون السلع من أجل الثراء قوم يكرهون الله تعالى!

وتقول إن الذين يضيقون على الخلق في الأرزاق قوم لا يعرفون محبة الله

تعالى، وتقرر أن الذين يبخلون بالطعام، ويمنعونه، قوم ما ذاقوا إيمانًا، وتقول إن الذين يغشون، ويستهينون بصلاحية الطعام قوم يصدون عن الله تعالى.

إن الحب مدخل عبقري للإيمان، والإحسان، واستفاضة الخير.

obeikandl.com

(74)

يقول تعالى ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤ وَيُذۡهِبۡ غَيۡظَ قُلُوبِهِمۡۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾

هاتان آيتان جليلتان جدّا، تقران سنة في الكون، والوجود الحي، وتكشفان عن سمت إنساني ثابت، مركوز في الخلق.

القرآن يقول إن مواجهة الشرك، والباطل، والفساد، والغرور، والانتفاخ المريض، أمر لازم، وهو يدعو إلى ذلك بأغلظ الأفعال الدالة على المواجهة في حق المشركين والمجرمين وقطاع الطريق بالفعل الأمر الصريح (قاتلوهم)، استصحابًا لما دوّنه في المنزلة من أوامر الفضح، والنقد، والإزراء، والجهاد بالكلمة الشريفة المبينة، والدليل الكاشف الدامغ.

إن مواجهة الشرك والظلم والفساد والباطل والغرور المريض، والبطش الأعمى، والاستبداد المبيرُ طريق تعذيب من يتورطون في هذه الموبقات.

إن المواجهة، والجهاد، والمقاومة، والممانعة، والتمسك بالحق، وكشف الزيف، طريق ظاهرة عبقرية مع بساطتها للنيل من أهل الظلم والفساد والبطلان، وطريق عبقرية مع بساطتها لخزيهم، وسود وجوههم، وتواريهم من الدنيا ومن الناس خوفًا وفزعًا من آثار مظالمهم، لا تلوموا

الذين يظهرون الفرح لإزاحة الظالمين من مواقعهم، ولا الذين أصابتهم الجوائح من الظالمين المبطلين للنيل منهم وتأخير رتبتهم في الحياة، لا تلوموا المؤمنين لأنهم يجمعون الأفراح من الأسواق بسبب السقوط والخزي الذي يلحق بنواصي الفجار!

الله جعل شفاء صدور المؤمنين ترياقًا يحمي المؤمنين من اهتزاز الإيمان في قلوبهم، ووعيهم.

الله جعل النصر شجرة تسقيها هزائم الفاسدين، وخزي الظالمين، وإزاحة الفاجرين من فوق أسرّة سلطتهم، الله يبشر بذهاب الغيظ من القلوب المؤمنة المكلومة، ويفتح الباب - للتوبة والعودة إلى الحق، والإيمان به، والتكفير عما فرط منهم في مؤازرة الباطل، ودعمه والسير في ركابه، والركون إليه، والتهليل لأوهامه، والحلم بقادته في المنامات - بهذا النصر، وهذا الشفاء أمام الذين خدعهم البطش الغاشم، والذين غرتهم السلطة المجرمة، وكسرت نفوسهم أمام أنفسهم الفتنة القائمة، وأعمت عيونهم، وزكمت أنوفهم تيارات الخوف الجارف والرهبة المحرمة.

يا أيتها القلوب المؤمنة المكلومة، أبشري، وانهضي، واستمسكي، وتعلقي بالآمال العِذاب!

(75)

يقول تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ٣٠ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ٣١ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ٣٢ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ٣٣ فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ٣٤ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ٣٥ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾

هذه آيات جليلة جدًا، تفتح بابًا للاطمئنان، والسكينة البالغة، الله يسمي الذين يخالفون عن أمره بالمجرمين، ويعين صفاتهم التي تصمهم بين الخلائق، وهم أصناف باتت معلومة بالإمكان رؤيتها.

إن المجرمين هم الذين يسخرون من الذين آمنوا بالله تعالى، والتزموا طريقه، تمسكوا بالحق الساطع، والمجرمون هم الذين يتغامزون، أو يرسمون ساخرين، ويكتبون مهينين الشريعة، وأفكارها، ويشغبون على الأعلام، ويصدون عن سبيل الله، والمجرمون هم الذين يسيئون إلى الله باسم الشعرية، وحرية التعبير، والآداب، والفنون، والمجرمون الذين يشوهون الذين آمنوا، ويضيقون عليهم، ويحاربونهم، ويتهمونهم، والمجرمون أصناف متكاثرة، متنوعة الله يتوعدهم، ويفضحهم، ويهددهم.

إن الآيات الجليلة وهي تعين الآخرة موعدًا لفضيحة المجرمين والانتقام منهم، والزراية بتاريخهم، لا تصادر على فضيحتهم في الدنيا قبل

الآخرة، ولا تمنع الزراية بهم هنا قبل الإهانة الأبدية هناك، إنما تربط على قلوب المؤمنين لكي لا يقنطوا، ولكي يستهينوا بهذا الفراغ الزمني، الذي يوشك أن يكون لا شيء في مقابل الزمن الأخير السرمدي.

إن مآل المؤمنين راحة بريئة، وبهجة خاشعة، وضحك مستغرق، ومتعة دائمة مقدسة.

إن الآيات تتجاوز صنع التعادل إلى شيء عجيب تربط به على القلوب المؤمنة الموجوعة في هذا الزمان الذي سينتهي، إلى البهجة التي لن تنقطع، وهي بهجة للأبدان بموجب توافر الأرائك في الجنان، وراحة الروح بموجب الضحك الذي يعمر الوجدان والقلوب.

إن أسلوبية السؤال الذي اختتمت به الآيات يتجاوز حدود الاستفهام إلى صنع حجاج عجيب يثبت البهجة والارتياح بدرجة مذهلة، ويصنع طاقة حجاجية مذهلة في إثبات المهانة المتعاظمة للكافرين والمجرمين، وكُتاب الشر، وفناني الفتنة المريضة، ورسامي الألوان الماجنة والعابثة.

الله يربط على القلوب، ويعد بالفرحة الساكنة، والبهجة الهادئة، والضحك الجليل، والسعادة الأبدية، الله يرسم السرور، فابتهجوا!

(76)

يقول تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾.

هذه آيات جليلة جدًّا، ورهيبة جدًّا، الآيات تتعرض لنموذج من الخلق مغترٍّ بقوته، وبطشه، وبما كنزه من ثروة، وبما تبعه من عائلة، وأبناء، وسلطة في قومه، ومنصب في بلدته، ثم هي تهينه، وتتعرض لنسبه الذي يسكنه العار، وتتبع عورته، وتكشف سقوط نسبه، وتعري نمطًا من صفات نفسه الدنيئة، وتفضح استهانته بالله تعالى، وجفاءه وغلظته، وسقوط إنسانيته، وتورطه في الحيوانية.

الآيات الجليلة تسعى إلى هدم هذه الأصنام معنويًا، بإذاعة ما كان يُظَنُّ أنه من الأسرار التي حاطها، وأمِنها، وكتمها عن العالمين، فلم تمنعه سلطته، ولم تمنعه عزته الكذوب من أن تُعرف، وتذاع، وتنتشر.

الله تعالى يمنحنا الدرس البليغ، ويعلمنا أن النصر متعدد السبل، وأن الهزيمة المعنوية لرموز العدو من أعلى سبل الانتصار للحق، لا تصدقوا الذين يقولون إن ذلك ليس عملًا أخلاقيًا، إنهم يكذبون على الله تعالى.

المهم ألا نفتري على أحد، أما أن ننتصر للحق بهزيمة الظالمين، وبيان انحطاطهم فطريق مأنوسة، وسبيل قرآنية، يدعمها فهم نبوي رشيد.

الآيات تفتح الباب أمام استثمار القوة المعنوية المتمثلة في فضح الأعداء، وكسر إرادتهم، وتعرية مقابحهم، هذا بعض الطريق التي غفل عنها أهل الحق زمانًا طويلًا!

obeikandl.com

(77)

يقول تعالى ﴿وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾.

هذه آية جليلة جدًّا، تقرر قانونًا كاملًا، مستجمِعًا شرائط الكمال، الله يقول الحق، في ما يصحح النظر إليه إلهًا مستحقًا، معبودًا، والله يقول الحق، ربًّا، يرعى، ويتفضل، ويمنح، ويرحم، ويحلم.

والله يقول الحق في ما أمر به، وهيأ الأسباب للإقبال عليه، والله يقول الحق في ما نهى عنه، ورتب عليه من العقاب، والعذاب، والضيق، والتيه، والضلال، ونكبات الزمان، والله يقول الحق ساعة انتدبنا إلى الخلق القويم، والرحمة بالخلق، والرأفة بالمساكين، والعطف على المتعلمين، واللين للإخوان، والإكرام للأصدقاء، والبر بالأحبة، والوفاء للأشياخ، وأولي المكارم من أصحاب الفضل، والله يقول الحق يحب لنا حبه، وحب تفاصيل شريعته، ودقائق ما نزّله، ويحب لنا أن نحب ما كان من أهل الإقبال عليه، وخدّام دينه، وحفظة وحيه، والله يقول الحق، والحق يفرض أن نحب أهل الحق الذين وفقهم لمتابعة الحق، وأن نبرأ من أهل الباطل، والمجرمين، والفسقة، والمستبدين، والطغاة، والذين يتهمون الوحي، ويُزرون بتراث الأمة، ويهيمون شوقًا بالغرب الذي يخاصم الله، الله يقول الحق، بكلامه، وبما هدى به إليه، وبالأعلام الذين نصبهم للدلالة

عليه، وبجهاد المستمسكين بوحيه، ويقومون على شرحه، والاستنباط منه، وتيسيره للخلق، ويواجهون الذين يشغبون عليه، الله يقول الحق، فأعرضوا عن كل الأصوات التي تخالفه، وتتنكر له، الله يقول الحق، ومراده أن نهتدي إلى السبيل الحق، اسمعوا لصوت الحق، استجيبوا لله الحق، الذي يقول الحق!

obeikandl.com

(78)

يقول تعالى ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِي مِن تَحْتِيٓ﴾

هذه آية جليلة تتكرر على الزمان، تقرر أن غرور المادة سبيل موطوءة للانحراف، وسبيل موطوءة للذهول عن الضعف الإنساني المستولي على الجميع، الآية تتجاوز حدود أحد الفراعين؛ لتكون دليلًا، ومنهجًا صادقًا على كل سفيه، ومستبد، وطاغية، في كل زمان، ومكان، يغتر ببعض عرض زائل، فيفتنه عن حقيقة ضعفه، وخوره.

إنَّ قصورًا من حجر وحديد، ونهر مهدد بالجفاف طبيعة، أو بتدخل بشري لم يكن ليطمس الحقيقة المعلنة عن العجز البشري!

كيف صح ما لا يتصور عاقل أن يصح؟!

العجيب أن هذا الافتتان ببعض هذا العرض المتروك مرّ في التاريخ، وكان طريقًا لسخطة مروعة من الجليل الجبار سبحانه، ثم لم يتنبه الطغاة، الله يقول: فلما آسفونا انتقمنا منهم، ومسوغات سخطه سبحانه كانت في الغرور المريض، وكانت في النهب المريض، وكانت في الابتزاز المريض، وكانت في اكتناز الثروات المريض، وكانت في التعالي المريض،

وكانت في الفتنة ببعض العرض الزائل، الله سبحانه انتقم من فرعون؛ لأنه اغتر، ولأنه أغضبه، ولأنه ابتز رجال الأعمال في زمانه، ولأنه قربهم، ولأنه رضي بفسادهم، ولأنه كنز ما كان من حقوق شعبه، ولأنه سكن القصور الزائلة ففتنته، ولأنه استخف قومه، فخنعوا، وتورطوا في وثنية متابعته، ومغازلته، الله الذي انتقم من فرعون القديم ما زال حيًا قيومًا لا يعجزه أن ينتقم من كل فرعون في كل زمان!

obeikandl.com

(79)

يقول تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾

هذه آية جليلة جدًّا،

وقدسية جدًّا،

الآية تقول إن قتل نفس بابٌ عريض لاستجلاب غضب الرب، الآية تعالن بحقيقة حرمة الدم، وتعالن بحقيقة قدسية الروح الإنسانية، الآية تفتح أمرها بنص صريح في التعليل، وهي تدعو إلى عمران الوجود، وتقرر أن العمران أساسه بقاء الإنسان، وأساسه حياة الإنسان، وتحسينها، وتجويدها، والارتقاء بها، كيف ذهل الإنسان المعاصر عن الإحياء؟

وكيف تورط في الدم، وانخرط في الهدم، وبالغ في القتل، نسف إنسانيته، وتنكّر لله تعالى؟

العقل المعاصر سقط في فخ التسطيح، وتغافل عن أن الإسراف متسع الدلالة، لا ينحصر في ما حصره فيه أصحاب القلوب التي تشوهت،

الآية تفتح الباب واسعًا لإعادة ترسيم حدود الإسراف، الإسراف في الآية يطال قلوبًا توجه أصحابها بها نحو التشوه، الإسراف في الآية نفوس انخرطت في القتل، وشجعت على القتل، ودافعت عن الذين قتلوا، وأشاروا على من قتل بما قتل بالكلمة الحرام، والإشارة الحرام، والحركة الحرام، والسعي الحرام، الإسراف لم يكن يومًا محصورًا في اللقمة الزائدة، ولا الشربة الزائدة، ولا في الدراهم الزائدة، الإسراف الذي تنكر له العقل المعاصر يتجاوز الحدود التي حصره فيها فقهاء السوء، الإسراف الحقيقي كما تشير الآية الجليلة هو الذي لا ينتصر للحياة، الإسراف الحقيقي كما في الآية القدسية هو الذي تورط في القتل، ودعا إليه، وفرح به، وسوغه، وأشار به، ونزل من أجل دعمه، القتل هدم للحياة، والله يغضب ممن يهدم الحياة، اتقوا غضب الرب!

obeikandl.com

(80)

يقول تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَسۡتَحِبُّونَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا عَلَى ٱلۡأٓخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبۡغُونَهَا عِوَجًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٍ ﴾

هذه آية جليلة، وبعض جلالها ظاهر في أنها تمثل قاعدة كلية للوجود، الآية تعلن حكمها الواضح المبين في الذين يتعلقون بالدنيا تعلقًا مريضًا، وفي الذين يطلبون هذا التعلق المريض - وأنهم على ضلال، وخسران، وتحير، وضياع، وتيه!

الآية تقرر أن الركون إلى الدنيا، بما هي عليه من حقارة، وانقطاع، في مواجهة الآخرة الباقية هو الضياع الحقيقي، وهو الانكسار الحقيقي، وعلامات التعلق المريض بارزة في سبيلين:

الأول: هو الصد عن سبيل الله تعالى.

الثاني: إقامة مؤسسات الانحراف، والاعوجاج.

يجب أن يكون مفهومًا، أن الهداية المبينة طريقها عكس هذا الطريق، طريقها أن يستحب الناس طريق الآخرة، وأن يعينوا على السير في سبيل الله تعالى، وأن يتعلق الناس بالاستقامة، ومقاومة الفساد، والتمسك بأخلاق الرعاية، والتراحم!

الله تعالى يدعوكم أن تمتنعوا من استخباب الدنيا، ذلك الاستحباب المختلط برفض الآخرة، والتنكر لدلالات الديمومة له تعالى.

إن تغييب وجه الآخرة يُدخِل الناس في دائرة التوحش، وقد دخل فريق كبير من هؤلاء الذين ينضوون تحت لافتة البشرية بسومهم إلى بيت التوحش والهمجية، في هذه الأيام السوداء!

إن الانحراف بالحب إلى ما لا يحقق الترقي الإنساني هو قمة التردي والسقوط!

هذه حقيقة ساطعة.

انتبهوا إلى هذه الحقيقة؛ لأجل نجاة الحياة، ونقاء الوجود، واستمرار الإنسانية، وخيريتها، هبوا إلى مقامات حب الآخرة، هذا صوت الآية الجليل!

obeikandl.com